

## الفصل الرابع

التطبيق على المقاصد الشرعية من ثنايا الآيات القرآنية ذات السياق العلمي

وفيه مباحث:

المبحث الأول: دلالات السياق القرآني وأثرها في تجلية المقاصد.

المبحث الثاني: استنباط المقاصد التشريعية الخمسة من النصوص القرآنية ذات السياق العلمي.

المبحث الثالث: العلم في ميزان التشريع.

المبحث الرابع: الإشكالات العلمية في القرآن الكريم والرد عليها.

## الفصل الرابع

### التطبيق على المقاصد الشرعية من ثنایا الآيات القرآنية ذات السياق العلمي

تمهيد:

إنَّ حسن فهم قصد النصّ الشرعيّ ثم تطبيقه على الواقع-العلميّ وغيره- نعمة من أعظم النعم التي يمنّ الله بها على عباده، فما أوتي أحد بعد الإيمان خير من تفقهه في الدين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وفي هذا يقول ابن قيم الجوزية في كتابه الروح: "سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد..."<sup>١٥٨</sup>. ومن الميادين التي ظهر فيها العناية بالسياق هي البحث في أسباب نزول النصوص الشرعية، وذلك لما يترتب عليه من أثر في الأحكام وتوجيهها، والكشف عن المعاني بدقّة، ثم تنزيلها واقعاً. ويلحق بذلك أيضاً ما كان لأهل اللغة العربية من عادة في الأقوال والأحوال والتنزيل، وإن لم يكن ثمّ سبب خاص فإن ذلك يعتبر دلالة حالية مصاحبة للنصّ الشرعي لا بد منها لفهمه؛ لأن النصوص جاءت تخاطبنا على وفق ما اعتاد عليه اللسان العربي.

ودلالة السياق هنا قرينة قوية محتفّة بالنصّ القرآني، كون هذا النصّ نازل في عهود التشريع الأولى على العرب الأقحاح، الذين فقهوا أنّه ما من نصّ صادرٍ إلّا وله قصد في التشريع؛ حيث قال الله -جلّ وعلا- عنه في كتابه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)<sup>١٥٩</sup>.

١٥٨ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. ١٤٢٦-٢٠٠٦. الروح. نشر دار الكتب العلمية بيروت، ص٦٣.

١٥٩ سورة النجم، الآيتين: ٣-٤.

واللغة وعاء الفكرة وخصائصها، وكلماتها وأساليبها إن اتسعت فإنها لا تكفي وحدها في إيصال المعنى المراد على الوجه الأتم، "فبعض أنواع الكلام يتطرقه احتمال أكثر مما يتطرق إلى بعض آخر، وبعض المتكلمين أقدر على نصب العلامات في كلامه على مراده منه من بعض آخر، ومن هنا وُصف بعض المتكلمين بالفصاحة والبلاغة، على أن حظ السامعين للكلام في مقدار الاستفادة منه متفاوت - أيضاً- بحسب تفاوت أذهانهم، وممارستهم لأساليب لغة ذلك الكلام، ولأساليب صنف المتكلم بذلك الكلام. وبذلك لم يستغن المتكلمون والسامعون عن أن تحف بالكلام ملامح من سياق الكلام، ومقام الخطاب، ومبينات من البساط، لتتضافر تلك الأشياء الحافة بالكلام على إزالة احتمالات كانت تعرض للسامع في مراد المتكلم من كلامه. ولذلك تجذ الكلام الذي شافه به المتكلم سامعيه أوضح دلالة على مراده من الكلام الذي بلغه عنه مبلغ، وتجذ الكلام المكتوب أكثر احتمالات من الكلام المبلغ بلفظه، بل المشافه به؛ من أجل فقدته دلالة السياق وملامح المتكلم والمبلغ، وإن كان هو أضبط من جهة انتفاء التحريف والسهو والتصرف في التعبير عن المعنى عند سوء الفهم.

## المبحث الأول

### دلالات السياق القرآني وأثرها في تجلية المقاصد

يقصر بعض العلماء ويتوَحَّل في سلسلةٍ من الأغلاط حين يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ، ويوجِّه رأيه إلى اللفظ مقتنعاً به، فلا يزال يقلِّبه ويحلِّله ويأمل أن يستخرج لُبَّهُ. ويهمل ما قدمناه من الاستعانة بما يحفَّ بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق، وإنَّ أدقَّ مقام في الدلالة وأحوجُه إلى الاستعانة عليها مقام التشريع<sup>١٦٠</sup>.

والقارئ في طرق استنباط السلف الأوَّل وكيف كانوا يضربون أكباد الإبل ويسافروا الأشهر ليتبصَّروا من آثار الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأعماله وعمل الصحابة ومن صحبهم من التابعين، وليتبيَّن لهم ما يدفع عنهم احتمالات كثيرة في دلالات الألفاظ، وليتضح ما يُستنبط من العلل تبعاً لمعرفة الحكم والمقاصد، وذات الاستنباط من دلالات النصوص القرآنية ذات السياقات العلمية للوصول إلى المقاصد الشرعية هو ما يناسب المقام وصولاً إلى ما يحقق -بإذن الله- صلاح الحال والمآل

- مفهوم دلالة السياق:

يستعمل العلماء والفقهاء وأصحاب اللغة لفظة "دلالة" كلَّ حسب تخصصه، ولعلَّ القاسم المشترك بين أرباب العلوم التعريفات اللغوية؛ لأنها طريقٌ موصلةٌ إلى التعريفات الاصطلاحية، ففي كتب اللُّغة كلمة "دلالة" مصدر دَلَّ يدلُّ دلالة بفتح الدال وهو أفصح، وروي بكسر الدال، وروي بضمها، والجمع أدلة، وأدلاء، والاسم الدِّلالة بالكسر والفتح، والدُّلولة والدُّليلي<sup>(١٦١)</sup>.

١٦٠ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي. ١٤٢٥-٢٠٠٤. مقاصد الشريعة الإسلامية. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

قطر. ٨١/٣

١٦١ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. ١٤١٤-١٩٩٣. لسان العرب. نشر دار صادر، بيروت، ط٣، ١/١٠٠٦.

أما عن تعريفها الاصطلاحي فقد وردت فيها تعريفات كثيرة، منها مثلاً ما ورد في كتاب الكليات أن الدلالة: (كون الشيء بحيث يفيد الغير علماً إذا لم يكن في الغير مانع) (١٦٢)، وورد في التعريفات الفقهية: (الدلالة بالفتح هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال والثاني المدلول، وبالكسر حرفه الدلال وما جعلته للدلال أو الدليل من الأجرة) (١٦٣)، وعرف الأصوليون الدلالة بأنها: ما يلزم من فهم شيء فهم شيء آخر، فالشيء الأول الدال، والثاني المدلول (١٦٤).

أما الشق الثاني من المركب فكلمة السياق، واشتقاقها اللغوي من مادة سَوَق، وتعني إجمالاً التتابع والانتقاد على نمط معين، والمعاني الواردة في هذا الباب كثيرة، وينتقي الباحث هنا من جملة المعاني ما يناسبه (١٦٥).

ثم أُخرج على التعريف الاصطلاحي لكلمة السياق، وأجديني بعد بحثٍ عريضٍ عن معناها ما وقفتُ إلا على ما ورد في التعريفات الفقهية حيث قال فيه: (هو أسلوبه الذي يجري عليه) (١٦٦)، ثم ما ورد في القرائن والنص من تعريفٍ للسياق قال فيه مؤلفه: (هو ما تمّ سرده أو إيراده من الكلام لمقصدٍ ما) (١٦٧).

وبعدما استنفدتُ جهدي في البحث عن تعريفاتٍ أكثر عمقاً لمصطلح السياق، استنتجتُ تعريفاً بناءً على ما تدوّفته من معنى الكلمة، وأراه يخدم الفكرة هنا بإذن الله، فكان ما توصلت إليه: أنّ السياق

---

١٦٢ الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني. ١٤١٩-١٩٩٨. (مرجع سابق). ص ٤٣٩.  
١٦٣ البركتي المجددي، محمد عميم الإحسان. ١٤٢٤-٢٠٠٣. التعريفات الفقهية. نشر دار الكتب العلمية، بيروت. ص ٩٦.  
١٦٤ راجع في هذا: الفتوح الحنبلي، محمد بن أحمد. ١٩٩٣-١٤١٣. شرح الكوكب المنير. نشر مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية. ٢١٥/١.

١٦٥ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. ١٤١٤-١٩٩٤. لسان العرب. نشر دار صادر، بيروت. ٢٤٣-٢٤٢/٢.  
الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. ١٤٠٧-١٩٨٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. باب القاف، فصل السين. نشر دار العلم للملايين، بيروت. ١٤٩٨/٤.

١٦٦ البركتي المجددي، محمد عميم الإحسان. ١٤٢٤-٢٠٠٣. (مرجع سابق) التعريفات الفقهية. ص ١١٨.

١٦٧ صالح، أيمن علي. ٢٠١٠-١٤٣١. القرائن والنص. نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ص ٢٩٦.

هو الوعاء الذي يختاره المتحدث لإيصال مُرادِه في كلماتٍ عبره وفقاً لحالٍ معينةٍ تلائم المقام. كما أنّ مسألة السياق ليست على قوليةٍ واحدة، بل لا تعدو أن تكون ترتيباتٍ كلاميةٍ متفاوتةٍ حسبما يحيط المتحدث من ظروف.

- عناصر السياق التي تؤثر في فهم النصّ الشرعي:

لأجل بيان وظيفة السياق والمقام في تحديد المقصود من النصّ الشرعي لا بدّ من حديثٍ عن عناصره الأربعة التي تتحكّم فيه، وهذه العناصر تحدّث عنها الفقهاء الأول، وما زال كل من أراد الإبحار فيها تتلمذ على مؤلفاتهم جزاهم الله عن الأُمَّة خيراً.

يطالعنا الإمام الشاطبي / متحدثاً عن السياق فيقول: "معرفة مقاصد كلام العرب؛ إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك..."<sup>(١٦٨)</sup>، فهنا بين لنا أركانه الأربعة، ولعلّي أتحدّث عن كل ركنٍ بما يُجَلِّيه بإيجاز ومن الله التوفيق.

**الركن الأول: لغة الخطاب:**

العامل الأول الذي يتحكم في فهم مقصد السياق الشرعي اللغة التي جاء بها النص، فكلما كانت أدقّ وأوضح كانت أسهل في الفهم وأسرع إلى التطبيق، ولغة الخطاب تعتمد على نوع الكلمات التي يختارها المخاطب وقدرته على الإفصاح، ثمّ على طبيعة اللغة ذاتها، فليست كل الأساليب اللغوية تعطي الدلالة ذاتها، وتطرّق الاحتمالات إلى المراد بالمعنى وارد، فمن الكلمات ما لا يحتمل إلا معنىً واحداً وهو النصّ، ومنها ما يحتمل أكثر من معنى وهو المشترك، ومنها ما يحتمل أكثر من معنى وبعضها يترجّح على

١٦٨ الشاطبي، إبراهيم بن موسى. الموافقات، ٤/١٤٦.

بعض، وهو الظاهر كما هو مفصّل في مباحث علم أصول الفقه<sup>١٦٩</sup>.

والقول هنا بلزوم التمسك بمعهد العرب في لغتها من أجل فهم النصوص لا يكون فقط في معاني الألفاظ، بل فيما تعارفت عليه العرب من المعاني والأساليب؛ لأنّ هذا يوصل إلى فهم المعنى التركيبي لنصوص القرآن والسنة؛ لأنّ الشرع إنما جاء على لغتهم تشريفاً، وكان في غاية البيان والتيسير، حيث قال فيه تعالى: (إِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)<sup>١٧٠</sup>.

والآيات في هذا الفلك كثيرة، والمحصلة أنّ الشرع لن يفهم ما لم يؤخذ بمعهد العرب، ومن سلك في فهمه غير لغتهم فقد جانب الطريق، وهذا وغيره مما أشار إليه الإمام الشافعي / في رسالته حيث يقول: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً، يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاماً ظاهراً يراد به العام، ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاماً ظاهراً، يراد به الخاص، وظاهراً يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.."<sup>١٧١</sup>.

من هنا عدّ العلم باللغة العربية وثقافة أهلها شرطاً فيمن يتصدى لتفسير كتاب الله ثم بعد ذلك بيان مناسبة هذا السياق لاستنباط المقاصد الخمسة، حيث أنا بصدد السياقات العلمية تحديداً، وبدون

١٦٩ راجع في تعريفات النص والمشارك والظاهر:

المقدسي، ابن قدامة موفق الدين. ١٤٢٣-٢٠٠٢. روضة الناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد. نشر مؤسسة الريان، بيروت.

راجع أيضاً: دكوري، محمد دمي. ١٤٢٠-١٩٩٩. القطعية من الأدلة الأربعة. نشر عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية بالمدينة.

راجع أيضاً: النملة، عبد الكريم. ١٤٢٠-١٩٩٩. المهذب في علم أصول الفقه المقارن. نشر مكتبة الرشاد، الرياض.

١٧٠ سورة الشعراء، الآيات ١٩٣-١٩٥.

١٧١ الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. ١٣٥٨-١٩٣٩. الرسالة. نشر مكتبة الخليلي، مصر. ١/٣٤-٥٠.

فهم اللغة يقع الغلط وسوء الفهم، فلا يُؤخذ من المعاني إلا ما اقتضاه اللسان العربي، وإن تُرجمت المعاني بعد ذلك إلى لغاتٍ أخرى؛ إذ المعنى تابعٌ للفظ، فلا يوصف الكلام كونه عربياً لو كان في الرسم الإملائي دون المعنى.

### الركن الثاني: المخاطب:

يُمثّل المخاطبُ العنصر القويّ في دلالة السّياق؛ فهو يتحكّم ببراعته في وضوح الخطاب أو غموضه، وذلك في جوانب أربعة: ١٧٢

أ. قدرة المخاطب على التعبير عمّا يود، فالمتكلّمون مختلفون في مدى القدرة على الإفصاح، وعلى قدر التمكن من اللّغة يكون البيان جليّاً، وهذا الجانب يراه قارئ نصوص الكتاب والسنة، فالقرآن مقياس اللّغة ومُعجزة العروبة كلها، والرسول ﷺ الأفصح قاطبةً وقد اختاره الله وآتاه جوامع الكلم، إذ وضوح السّياق الخطابي معيّنٌ على دقة استنباط المقصد الشرعي خلاله.

ب. الألفاظ التي يختارها المخاطب، فبوضوحها وضوح المعنى ويُسرّ إفهامه، وتتفاوت الألفاظ كذلك، فمنها النصّ، ومنها المشترك، ومنها الظاهر، ومع أنّ نصوص الشريعة لم تقصد الإغراب، إلا أنّ طبيعة اللّغة ذاتها واسعة وتحتل من المعاني الشيء الكثير؛ لأنّها وردت على لغة أكثر من قبيلةٍ عربيةٍ، وربما لأنّ الشرع لما جاء نقل الألفاظ من استعمالها الخالي من روح الشريعة إلى ألفاظٍ تمتلئ بالمعاني والمقاصد الإسلامية التي نقلت العرب عمّا كانوا عليه من تحبّط الجاهلية إلى إشراقه الإسلام على القلوب.

ج. الجانب الثالث فيما يقوي جانب السّياق إرادة المخاطب وسعيه قدر إمكانه إلى إفهام المخاطبين، إلاّ أنّه قد يستعمل أحياناً ألفاظاً فيها من الإبهام أو الاحتمال، مثال ذلك ما ورد في قوله تعالى: (هُوَ

١٧٢ الجوانب التي تتحكم في فهم الخطاب ذكرها د. نعمان جغيم في كتابه طرق الكشف عن مقاصد الشارح، نشر دار النفائس بالأردن، ط ١، ١٤٣٥هـ، من ٨٤ - ٨٩ وأوردت خلاصتها هنا ليتضح المقصد.

الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (١٧٣)، فما ورد هنا في نصوص الشرع من متشابهات ليس فهم مقصودها التكليف، وإنما الإيمان بما أنزل علينا منها، كما أن القرآن جاء معلماً القوم أسس الحياة من جديد، وربما كان القصد كذلك تكثير المعاني التي تُؤخذ من الكلمة الواحدة<sup>(١٧٤)</sup>. وأقول في تكثير المعاني هنا أن يستنبط العلماء المقاصد الخمسة في السياقات العلمية، كما يستنبط آخرون الدلالات الاجتماعية الواردة في الآيات، والطبية والسياسية وغيرها، كلها تدخل تحت تكثير المعاني القرآنية المستفادة.

د. الجانب الرابع حال المخاطب، فحال الظاهرة تسهم في إفهام القصد، فاللغة تضيق عن الفكرة، ويلجأ المخاطب حينها إلى الاستعانة بما أدعه الله حوله من معينات على الفهم، إذ أن الكون كله في مجمله يسوق المتفكر في الآيات إلى دلالة أن القصد الشرعي مؤكد مهما اختلفت المنافذ، فالمخاطب مثلاً قد يحقق مقصد حفظ العقل الوارد في الآيات بدراسة النباتات حوله، وما لا يسكر منها وما يسكر، ثم يطوّر هذه المعرفة إلى معالجات وعقاقير وأدوية تحقق بإذن الله حفظ النفس والنسل.

الركن الثالث: المخاطب (السامع)؛

فالسامعون يتفاوتون في مقدار الاستفادة من الخطاب الوارد إليهم، وذلك استناداً إلى قدراتهم العقلية واستجماعهم لأدوات فهم النص الشرعي وأساليب اللغة، وطول ممارستهم لأساليب كلام المتكلم مما يعطي صاحبه درية ومراساً في الفهم، لأجل ذلك امتاز الصحابة -رضوان الله عنهم- على غيرهم في

١٧٣ سورة آل عمران، الآية ٧.

١٧٤ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي. ١٤٠٤-١٩٨٤. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الرشيد في تفسير الكتاب المجيد.

نشر الدار التونسية، تونس. ١٥٣/٣.

قدرتهم على فهم نصوص الشارع لأنها وردت باللغة العربية، ومع ذلك فقد كانوا يتفاوتون فيما بينهم.

إلا أنه كان لزاماً الحفاظ على اللغة العربية مما قد شابها من توسع وتنام؛ لأن الخطاب الشرعي الموجه إلى السامع لن يفهم إلا على معهود أيام العرب؛ لأنه لو لم يفهم على معهودهم أدى ذلك إلى الانحراف المؤدي إلى الزيغ في الأحكام، وتحريف المقاصد، وربما بلغ الحد إلى تحميل اللغة ما لا تتحملة النصوص الشرعية.

ومع التسليم بما سبق إلا أنه لا يغيب عن أذهاننا أن الله أنزل الشرع بأيسر اللغات، فلا يعسر الفهم على قارئ نصوص الوحيين مصداقاً لقوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)<sup>١٧٥</sup>.

#### الركن الرابع: سياق الخطاب:

أما معنى كلمة سياق فقد تعرضت إليها بداية هذا المطلب، وسياق الخطاب على نوعين: سياق لغوي مكوّن من جمل تسبق وتلحق نص الخطاب، وسياق اجتماعي وهو المقام، ويدخل فيه أسباب نزول بعض الآيات، ويدرس كذلك الظروف النفسية والاجتماعية السائدة وقت ورود النص.

وأهمية السياق اللغوي الذي هو القرائن اللغوية تتبلور في تحديد معنى الكلمات نحويّاً، فهي المسؤولة عن أمن اللبس فيها ووضوح مرادها، كذلك مسؤولة عن المعاني المتعددة للكلمة الواحدة، وهل تصلح كلها في السياق الواحد، أم المعنى مخصوص بفهم معين حسب المقام، وهو كذلك، لهذا يعرف الإمام ابن قيم الجوزية / الفقه بأته: "فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم"<sup>(١٧٦)</sup>.

ومن أمثلة الخطاب الذي يتبين مقصودة بقرائن لفظية قوله تعالى: (وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

١٧٥ سورة القمر، الآية ١٧.

١٧٦ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. إعلام الموقعين عن رب العالمين. ١٤٢٣-٢٠٠٢.

حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٧٧).

فقارئ بداية الآية يفهم أن السؤال عن القرية ذاتها، ولكن بعد قوله تعالى: (إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ) قرينة لفظية دلّت على أن المقصود أهل القرية؛ لأن ضمير الجمع في (يَعْدُونَ) يصرف المعنى المراد عن القرية إلى أهلها، ولأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة (١٧٨).

ثم أنتقل إلى وظيفة السياق الاجتماعي الذي يدور في حصيللة الظروف الجمعية والطبيعية التي لها تأثير في صيغة الخطاب. ومقامات الخطاب بكل ما فيها من تدوّق وحسنٍ وعاطفة يعسر فهمها على غير أبنائها، فاللغة شعور وانتماء، واللغة علاقات وروابط لا يحيط مراميها إلا من نشأ في مرابع مجتمعتها وتلقّى ثقافته، ومهما بلغ تضرّع غير ناطقٍ بها فيها لن يبلغ أحاسيس أهلها؛ لأنه سيظلّ عاجزاً عن إدراك البيئة العربية التي نزل القرآن عليها، وعن فهم الأثر الذي تركه القرآن في قلوب أبناء العروبة، وعن كيفية تلقيهم للنص الشرعي ثم فهم مقاصده والعمل به، وعن سبرهم أغوار النصوص لأنها كانت بلغتهم وعلى سليقتهم. وخلاصة القول إنه كلما كان استحضار القرائن التي حقت الكلام أشمل كان فهم مراد المتكلم أدقّ وأعمق، وفي حياتنا نلاحظ أن الكلام الشفهي به أوضح دلالةً من الكلام المكتوب أو المنقول، والعكس بالعكس، فإهمال هذه القرائن مؤدٍ إلى قصور في الفهم، وفي هذا المدار يقول الإمام الشاطبي: "وإذا فات نقل بعض القرائن الدالّة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه" (١٧٩).

والمقام الاجتماعي هنا ضربان<sup>١٨٠</sup>: مقام عام ومقام خاص، فالخاص ما احتفّ بواقعة معيّنة، والعام

١٧٧ سورة الأعراف، الآية ١٦٣.

١٧٨ الرسالة، للإمام الشافعي. ص ٦٢.

١٧٩ الموافقات، للإمام الشاطبي، ١٤٦/٤.

١٨٠ نقلتهما بتصرّف عن د. نعمان جغيم في كتابه طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص ٩٧ وما بعدها.

هو الأصل وهو الهدف الذي اقتضى نزول القرآن، والإرشاد إلى أقوم السبل والوقوف على تفصيلات حوادث بعينها دون حصر التوجيه على أصحابها، والقرآن يمتلئ بهذا، ففيه آيات كثيرة أمثال قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)<sup>١٨١</sup> ، وقوله: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)<sup>١٨٢</sup> ، وكذلك في مواطن أخرى لا يمكنني حصرها.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA  
جامعة العلوم الإسلامية  
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

---

١٨١ سورة الانعام، الآية ٣٧.

١٨٢ سورة الإسراء، الآية ٨٩.

## المبحث الثاني

استنباط المقاصد التشريعية الخمسة من النصوص القرآنية ذات السياق العلمي

### تمهيد

في هذا المبحث أتناول - بإذن الله - الآيات العلمية في سورة البقرة خاصة، وآيات في سورٍ أخرى تناقش ذات الفكرة وتدعمها، إذ احتوت على المقاصد الشرعية الخمسة، تتبعاً لآيات كل مقصدٍ على حدة، ولقد عمدتُ إلى تقييد الآيات الواردة هنا، حتى لا أسرد كل الآيات العلمية فيدخل في الباب ما ليس منه.

يختلف الحديث في هذا المبحث عن سابقه، الذي جاء على عكسه، وهو المبحث الثاني من الفصل الثالث، الذي كان الحديث فيه التطبيقات العلمية الحديثة تساهم في تحقيق المقاصد الشرعية، ثم إيراد ما يسندها من كتاب الله.

أما هنا فهذا المبحث قائمٌ على ذكر آياتٍ قرآنية استنبط منها العلماء أفكاراً وتطبيقاتٍ علمية، وهذه الآيات ذات دلالات مقاصدية، سواءً وجدنا الربط المقاصدي عند المفسرين سابقاً، أو هدانا الله إلى إيجاد هذه المقاصد حين إيرادها.

ذلك أن القرآن الكريم مهما تعددت معطياته، وتنوّعت نقاشات آياته، هي في جملتها تتجه نحو حقيقةٍ واحدة: أن الخالق واحد، قد كفل تدبير أمور الحياة وهيئاً الأسباب وسخر كل شيء، من عقولٍ ورسالاتٍ وابتكاراتٍ وغيرها، وما كانت كل هذه التهيئات إلا ليحقق المسلم الهدف الذي حُلِق لأجله وهو عبادة الله على بصر، ثم عمران الكون وفقاً لما جاء في الأصول الشرعية المقررة، أما التفصيلات العامة

فقد ترك الله كثيراً منها لفكر الإنسان المتطور في كل حِقبة بناءً على ما وصل إليه من العلوم، وكما هي العبارة السائدة فليس من حقائق الحياة شيءٌ إلا ونجد له في القرآن أساساً، يقول تعالى: ( مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ )<sup>١٨٣</sup>.

## ١ . مقصد حفظ الدين:

في مجال تحقيق هذا المقصد العظيم فإني سأتناول قول الله تعالى في كتابه الكريم: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)<sup>١٨٤</sup>، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)<sup>١٨٥</sup>، وقوله تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ)<sup>١٨٦</sup>، وكيف أنه خلال هذه الآيات العظيمة -أمودجاً- نستطيع استنباط عددٍ من الأمور، أهمها وأساسها: تحقيق مقصد حفظ الدين، ثم فتح أفق جديدٍ نستطيع بالإقناع خلاله الدعوة إلى الله، وأخيراً العلاقة بين هذه الترتيبات العددية بالتقدم العلمي المعاصر، وغيرها من التساؤلات التي يحتملها هذا المجال، حيث لا يتجادل اثنان في أن القرآن الكريم متجدد المعارف والعلوم، كلٌّ يغرف من بحره الواسع، مناسباً تقلبات الأزمنة، محافظاً على ركائز التشريع الأساسية.

عوداً إلى الآية الكريمة، فقد ذكر الله أن عدد شهور السنة ١٢ شهراً، وقد تنبعتُ ورود كلمة شهر في القرآن الكريم فوجدتها وردت في اثنا عشر موضعاً: أربع مراتٍ بلفظ "شهر"، ست مراتٍ بلفظ "الشهر"، و مرتان بلفظ "شهرًا" ، ومن المعلوم أن هذا التناسق والتوافق ما جاء مصادفةً - جلّ الله - ، وهذه الآيات التي حوت الـ ١٢ شهراً هي في قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) وقوله:

١٨٣ سورة الأنعام: الآية ٣٨.

١٨٤ سورة البقرة. الآية ١٨٩.

١٨٥ سورة البقرة. الآية ١٦٤.

١٨٦ سورة التوبة. الآية ٣٦.

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)<sup>١٨٧</sup>، (الشَّهْرُ الْحَرَامُ)، (بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ)<sup>١٨٨</sup>، (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ)<sup>١٨٩</sup>، (وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامِ)<sup>١٩٠</sup>، (وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمُدْيَةَ وَالْعُقَيْدَةَ)<sup>١٩١</sup>، (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا)<sup>١٩٢</sup>، (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ)<sup>١٩٣</sup>، (حَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)<sup>١٩٤</sup>، (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)<sup>١٩٥</sup>.

في الآيات السابقة تكلم الله عن الشهور، وبناءً عليها مطالع الأعمار، وما يترتب عليها من العبادات وأوقاتها، إذ أن معظم أركان الإسلام ترتكز على معرفة بداية السنة ونهايتها وتتبع هلال الشهر خلالها، وازدياد الاهتمام بهذا الجانب الذي بدأ مع الإنسان ثم تطوّر علمه الآن يتحقق مقصد حفظ الدين وإقامة شعائره.

ومن خلال بحثي وجدت أن الشهور المقصودة في القرآن الكريم هي الشهور القمرية، ذلك أن الله سبحانه يقول في موطنٍ آخر: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)<sup>١٩٦</sup>، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً إلا أن يشهد شاهدان)<sup>١٩٧</sup>، ولأن الحديث في الأشهر القمري والشمسية يطول نقاشاً فقد وقفْتُ

١٨٧ سورة البقرة. الآية ١٨٥.

١٨٨ سورة البقرة. الآية ١٩٤.

١٨٩ سورة البقرة، الآية ٢١٩.

١٩٠ سورة المائدة، الآية ٢.

١٩١ سورة المائدة، الآية ٩٧.

١٩٢ سورة التوبة، الآية ٣٦.

١٩٣ سورة سبأ، الآية ١٢.

١٩٤ سورة الأحقاف الآية ١٥.

١٩٥ سورة القدر، الآية ٣.

١٩٦ سورة النحل، الآية ١٦.

١٩٧ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي. ١٤١٩ - ١٩٩٨. تلخيص الخبير في تخريج أحاديث الرافي الكبير. نشر دار الكتب العلمية: بيروت. الحديث رقم ٨٧٧. ٤٠٥/٢.

على مقالة علمية بحثية شرحت أصل أن دخول شهر رمضان محسوباً بالأشهر القمرية، يحسن أن أتوه عليها لمن أراد الاستزادة<sup>١٩٨</sup>.

أما الشهور القمرية في تعريفها الاصطلاحي فهو:

"هي الشهور التي يتم توقيفها بدورة القمر حول الأرض، وطول الشهر القمري ٢٩ يوماً ونصف على التقريب"<sup>١٩٩</sup>، وأيضاً: "الشهر القمري هي المدة بين ظهور هلالين متتالين جديدين، وهي غالباً ما بين ١-٢٩ يوماً"<sup>٢٠٠</sup>. ويؤكد هذا أن جميع التكاليف الشرعية قد ربطها الشارع الحكيم بالأهلة، وعلى ذلك فإن السنة المعتبرة في الإسلام هي السنة القمرية، وإن الشهور المعتبرة هي الشهور القمرية، كذلك كان من تراث النبوة أن العرب قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام - كانوا يعظمون الأشهر الحرم: وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والحرم، ورجب حتى في زمن شركهم وجاهليتهم.

ومنصوصاً شرعاً أن المعصية في هذه الشهور تلقى عقاباً من الله أشد، كما أن الطاعة تلقى أجراً أعظم وثواباً أكثر من بقية شهور السنة، وعلى المسلمين اليوم إدراك ذلك ومتابعته كي تتعزز مكانة هذه الأشهر الحرم في قلوبهم وعقولهم فتحقق الحكمة من قول ربنا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)<sup>٢٠١</sup> ويأتي بعد ذلك أن القمر هو أقرب أجرام السماء إلينا، وحركاته هي أكثر حركات أي جرم من الأجرام الكونية وضوحاً لنا، وضبط الأزمنة به أحكم

---

١٩٨ لمزيد من التوسع في هذه النقطة راجع المقال التالي بعنوان: لماذا يختلف موعد رمضان في كل عام، وهل كان ثابتاً. [akhbarak.net](http://akhbarak.net)

، أيضاً موقع: [islamka.info](http://islamka.info)

١٩٩ عمر، أحمد مختار عبد الحميد. ١٤٢٩-٢٠٠٨. (مرجع سابق). ٣/١٨٥٧.

٢٠٠ شرف، عبد العزيز طريح. نسخة الكترونية لم أجد لها تاريخ نشر. المقدمات في الجغرافيا الطبيعية. نشر مركز الاسكندرية للكتابة:

مصر. ٣٠/١.

٢٠١ سورة التوبة الآية ٣٦.

من ضبطها بأي وسيلة كونيةٍ أخرى" ٢٠٢. أيضاً في هذا الصدد أذكر قوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) ٢٠٣، وكيف أن إقامة الدين عن طريق ضبط توقيت شعيرة الصيام، والصلاة، وذلك بتتبع مطلع الفجر من حالك الليل، تتبعاً علمياً ذا صبغةٍ شرعية تبين لنا أن العلم حين جاء ما كان إلا رافداً يخدم تحقيق مصالح الشرع ومقاصده، وأن مزيد الإمام به قوة وعبادة، إذ اتَّحد النصّ والعلم في خدمة ذات الهدف السامي، وفي هذا يقول العلامة الشيخ ابن باز -رحمه الله-:

المراد بذلك الصبح والليل، الخيط الأبيض نور الصبح، والأسود ظلمة الليل، فإذا اتضح الفجر أمسك عن الأكل والشرب الصائم، ودخل وقت صلاة الفجر، والخيط عبارة عن الصبح والليل.

فالمؤمن يأكل ويشرب إذا كان في الصيام، حتى يتبين هذا، ولا يصلي صلاة الفريضة، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود عن الفجر، وإذا ضبط ذلك بحساب الساعات على طريقة مضبوطة نفع ذلك، وكفى، لكن إذا كان في محل يمكن الصبح ينظر الصبح، كالذي في السفر في البر، وكأهل البوادي وكالقرى التي ما في عندهم أنوار، قد يرون الصبح بسهولة" ٢٠٤

أما العلم اليوم فقد بين لنا حركة الفلك بطول الشمس ومغيبها، حيث ساهمت التقنيات الحديثة -بفضل الله- في ضبط الأوقات العبادية، وسهولة أداء المناسك حيث كان المسلم، فلا تضيع عبادته، ولا يخلّ بالإمام بأمور دنياه.

---

٢٠٢ مقالة بعنوان: الكون وأسرار القرآن. على موقع: [ar.islamway.net](http://ar.islamway.net).

٢٠٣ سورة البقرة. الآية ١٨٧

٢٠٤ الموقع الرسمي لسماحة الشيخ ابن باز -رحمه الله-: [binbaz.org.sa.fatwas](http://binbaz.org.sa.fatwas)

وبالحديث عن هذه الآيات القرآنية ذات العلاقة بالتطور العلمي المعاصر وبارتباط الإنسان بالكون ودورانه معه أداءً لشعائره فإننا نستطيع القول إن مقصد حفظ الدين متحقق بتتبع هذه الوسائل وتطويرها، بل والتقرب إلى الله بتعلمها.

من جهةٍ أخرى فإنَّ العناية بما جاء في كتاب الله من ذكرٍ لأُمورٍ معلومةٍ للجميع مسلماً وكافراً تعيننا في الدعوة إلى التشريع القويم، وإثبات صدق الرسالة، وأنها حقيقية منسجمة مع شؤون الكون والحياة، فشهور السنة المعروف عددها للجميع مبيّنةً بياناً يقتنع بها غير المسلم حين دعوته، إذ أننا في أشد الحاجة إلى براهين ملموسة بحجةٍ منطقيةٍ واضحةٍ تؤكد لهم أن هذا الدين هو دين العلم والنهوض، وأن هذا القرآن كلام الله وليس كلام بشرٍ ينقض بعضه بعضاً، فالحقائق المحكمة والنقاش المؤصل يصنع طريقاً سالكاً نحو الرشاد بإذن الله.

وبالخلاصة: فإن ما سبق الحديث عنه في ظل الآيات الكريمة: (إن عدّة الشهور..) بناءً ركيزةً لجانب تحقيق المقصد الديني من تتبع الأهلة ومعرفة مطالعها وتطوير فنونها علمياً، ذلك أن في الاهتمام بها ومتابعة التطور الحديث فيها مساهمة كبيرة في تحقيق مقصد حفظ الدين، وغيره من الآثار الإيجابية الواسعة التي تعود على الإسلام والمسلمين بالخير الكثير، وبالله التوفيق

## ٢. مقصد حفظ العقل:

لقد بيّنت النصوص الشرعية في الكتاب والسنة كل ما من شأنه أن يقيم حياة الإنسان ويهدّجها، ومن ذلك عناية الشارع بالعقل، وكيف أنه مناط التكليف والفهم والإدراك، وقد سبق الحديث عن هذا بإسهابٍ أكثر. أما هنا الآن فإني سأورد نصوصاً قرآنية، استنبط العلم المعاصر من سياقاتها توجيهاً صارماً ودراسةً حديثة، يقودنا العمل بفحواها والأخذ بما جاء فيها إلى حماية وصيانة العقل أن يشوبه ما يفسده

ويلحق الضرر به، أخذاً بمقتضى قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)<sup>٢٠٥</sup>، وبالتالي حفظ المجتمعات من الدمار العقلي وما يتبعه، حيث لن تقوم حضارة ما دام الحرك الفكري الأساسي غائب الحضور!

يقول تعالى في كتابه الكريم: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ)<sup>٢٠٦</sup> (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِعَيْبِ اللَّهِ بِهِ)<sup>٢٠٧</sup>، وقوله: (تَمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ)<sup>٢٠٨</sup>، إذ هذه هي المواطن الثلاثة التي ذكر الله فيها تحريم أكل لحم الخنزير بالنصّ الواضح الصريح الذي لم يكن فيه مجال للتدرج بالكراهة.

ومن المعلوم أن تحريم أكل لحم الخنزير لم يكن حصراً على المسلمين وحسب، بل جاء تحريمه أيضاً في الديانات السابقة، يقول صاحب تفسير مناهل العرفان: "أن أكل لحم الخنزير محرم في اليهودية ومضى عهد عيسى دون أن يعرف عنه ما يدل على إباحته ولكن الحواريين جاؤوا بعد عروج عيسى أيضاً فأباحوا لحم الخنزير على زعم المسيحيين فإثماً أن يكون هذا نسخاً، وإما أن يكون افتراءً وكذباً نحو ما سبق"<sup>٢٠٩</sup>. وعلى مرّ الأديان: لم يحرم الله شيئاً إلا وفيه مفسدة، ولم يخلق الله شيئاً إلا للحكمة، وما تمّ تحريمه معدود محدود أمام الكمّ الهائل من النعم التي أباحها الله، فكلّ طيبٍ حلال، وكلّ محرّمٍ خبيث.

في ميزان الشريعة، فإن الالتزام بأوامر الله واتباع إرشاداته معّ العبادة، ومع ذلك فقد هدى الله الأفهام لاكتشاف بعض من جوانب التحريم القاطع، وذلك بتسخير العلم الحديث، حيث يبهرنا العلم

٢٠٥ سورة البقرة، الآية ١٩٥.

٢٠٦ سورة البقرة، الآية ١٧٣.

٢٠٧ سورة المائدة، الآية رقم ٣.

٢٠٨ سورة النحل، الآية ١١٥.

٢٠٩ الزرقاني، محمد بن عبد العظيم. ١٣٦٢-١٩٤٣. مناهل العرفان في علوم القرآن. مطبعة عيسى البابي: مصر. ١٩٢/٢.

يوماً بعد يوم بما يحمله هذا المخلوق النتن من مشكلاتٍ تجرّ على الإنسان الأمراض الفتاكة مستعصية العلاج، ابتداءً بوصفه حيواناً ناقلاً للطفيليات التي تدمر الجهاز المناعي، مروراً بالتهاب الكبد الخطير الذي يهدد حياة البشرية، وأشدها ضراوةً وشراسةً ما تفرزه كليتا الخنزير من فايروس يؤدي إلى اضطراباتٍ في عمل الدماغ، ولعل هذه الدراسة العلمية الحديثة هي من أهم ما دعاني هنا إلى الحديث عن حفظ العقل خلال تحليل آيات أكل لحم الخنزير: فباستمرار تناوله نيئاً أو مطبوخاً مرور مكثف للفيروسات إلى الجسم وتخللها في ثناياه، مما يتسبب في هدم الجهاز العصبي المركزي الذي يسيطر الدماغ على جزءٍ كبيرٍ منه، وتقليل كفاءة عمله بل ونهايتها، وبالتالي استقبال الإنسان للهجمات المناعية الشرسة التي تسمى بالتصلب اللويحي المتعدد، ولم يكن هذا الأمر حديثاً فقد اكتشفه العلماء منذ الثمانينيات عندما حللوا العلاقة بين استهلاك الفرد من لحم الخنزير وانتشار التخلف العقلي والانتكاسة الخلقية في عشرات البلدان التي تقتاتُ عليه .

وجاء في بيان المعالي: "كما أنه ينقل أيضاً الدودة الوحيدة المسماة (ألتبنا) التي لا ينقلها من الحيوان إلا الخنزير فهو العائل لها دون غيره، فإذا أكل الإنسان لحم الخنزير ولم ينهك جيداً في الطهي أصابه ذلك ولهذا ترى المصابين من أكلته كثيرين لأنهم اعتادوا أن يأكلوه على درجة غير كافية من النضج لا تكفي لقتل ذلك الطفيل، وقد يورث أكله على هذه الحالة الجذام والعياذ بالله" ٢١٠ .

وقد أدت التحذيرات التي أطلقها العلماء مؤكدةً جميعها على خطورة الخنزير على الإنسان إلى إقدام الكثير من الدول التي كانت تتسابق على تربية الخنازير إلى قتل الكثير منها، حيث شنت دول تايلاند والصين وكمبوديا واليابان وأستراليا والهند وفرنسا وبريطانيا حرباً لا هوادة فيها على الخنازير، بعد أن أثبتت الدراسات العلمية أن الخنزير هو السبب المباشر في انتشار مرض (التهاب الدماغ الياباني)، وأن هذا المرض

٢١٠ آل غازي العاني، عبدالقادر بن ملاً بن حويش. ١٣٨٢-١٩٦٥. بيان المعالي. مطبعة الترقى بدمشق. ٦ / ٢٨٩.

يقتل أكثر من ٣٠,٠٠٠ شخص سنوياً في أستراليا وحدها، وأنّ الفيروسات التي يحملها جسم الخنزير بكل أجزائه شديدة الخطورة ففي حالة تعرض الإنسان إلى هذه الفيروسات فإنه في كثير من الحالات يموت بعد ٧٢ ساعة<sup>٢١١</sup>.

تأكيداً على ما سبق من تأثير لحم الخنزير على الدماغ ومركز الأعصاب، وبالبحث في مراكز الدراسات العلمية الأجنبية وجدت هذه الدراسة المدعومة بالصور والاستشهادات، إذ ورد فيها:

(Do you know of someone that needs a good reason to switch to a whole-food, Starch-Smartdiet? If so, you may want to share the two videos below with them featuring Dr. Michael Greger. This information may motivate your bacon-loving friends to reconsider their disease promoting diets!

A review by the Mayo Clinic describes how eating pork may initiate neurocysticercosis, which literally means "pork tapeworms curled up inside your brain." Surprisingly, neurocysticercosis is "the most common cause of adult-onset epilepsy in the world." Pork tapeworm larvae, called Cysticercoid, "create cavities in the human brain and other body tissue where their tiny bodies grow sometimes into tapeworms 2 to 7 meters (23 feet) in length and can live up to 25 years in the human body." The Centers for Disease Control (CDC) published a review stating, "Pork tapeworms on the brain has emerged as a cause of severe neurologic disease in the United States)<sup>212</sup>

---

٢١١ للمزيد من الدراسات العلمية حول أضرار لحم الخنزير والحكمة من تحريمه:

موقع مجلة البيان: [www.albayan.ae](http://www.albayan.ae) مقال بعنوان: الحقائق العلمية وراء تحريم لحم الخنزير. ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٦.

أيضاً: [www.webteb.com](http://www.webteb.com) مقال بعنوان: أضرار لحم الخنزير.

٢١٢ وقفت على مقالات عديدة باللغة الإنجليزية/ ممن يتناولون لحم الخنزير منددين بشسدة على خطورتها الراهنة، وآثارها الممتدة، راجع

المقال التالي: [Dr.Carney.com](http://Dr.Carney.com) This Is Your Brain On Pork على الموقع الرسمي:

لقد جاءت مثل هذه الدراسات الصادرة عن الجامعات العلمية الغربية لترد على النداءات التي كانت تنتقد المسلمين بأنهم يجرمون الخنزير دون أي دليل علمي بل هو التخلف الفكري. ولكن بعد أن أثبتوا بأنفسهم علمياً وطيباً خطر الخنزير على صحة الإنسان وعقله خصوصاً، وتأثيره على أخلاقه، وانتزاعه شأيب الأخلاق منه كونه يتغذى على الهوامّ ويرتع في القاذورات فينقل الطبع الديني إلى الإنسان ويجزّده من كل معاني السموّ والقيم، بعد أن شهدت هذه الحقائق عليهم من بين أنفسهم خرس تلك الأصوات المدافعة، حيث أقرّوا ضمناً أن ما جاء به القرآن قبل أكثر من ١٤٠٠ عام هو الحق الذي لا ينطق عن بطلان - جلّ الله -

من خلال ما تمّ عرض جوانبه بإيجاز: يتبيّن لنا كيف أن الشارع الحكيم كفل حفظ النفس عموماً والعقل تحديداً حين حرّم تناول لحم الخنزير، فبالبعد عنه بناءً القدرات العقلية، وباستمرار تناوله هدمها وزوالها، وبالتالي انتفاء تحقق هذا المقصد الراسخ!

وبالخلاصة فإن على المسلم السعي في نشر الوعي العلمي، كلٌّ حسب مكانته سواءً أفرادٍ وجماعات، وبجميع الوسائل المتاحة، انطلاقاً من هدي الشريعة وتوجيهاتها، ربطاً بين ما يحدث من أضرارٍ ملموسةٍ واقعةً وما تمّ التشجيع به نصّاً قاطعاً، وبالله التوفيق.

### ٣. مقصد حفظ المال:

إن من أهم المقاصد الشرعية مقصد حفظ المال وتنميته وعدم تلفه وضياعه، فهو قوام الحياة وبه تقضي مطالبها وحاجاتها، وجمع المال فطرةً جبل الله خلقه عليها، لذلك فالإنسان منذ بدء الخليقة الأولى يسعى لتحصيل المال بالوسائل المتاحة، ولا بد لهذا الكسب من ضوابط وقوانين ترتكز على الثواب والعقاب، ومراعاة مصلحة الفرد وجماعة دون طغيان أحدهما على الآخر، إضافةً إلى الآداب العامة والأخلاق، حتى لا تتحول الحياة إلى غابةٍ يسودها الهرج والمرج.

والمتمثل في القرآن الكريم وتفسيره يلحظ جلياً كيف أنه أسس كثيراً من القواعد الاقتصادية التي حفظت جانب المال، مثل الرهن وكتابة الدين والضمان، وجاء بعد ذلك العلماء فاستنبطوا من آيات المال الأفكار العلمية الاقتصادية التي منها وسائل حماية المال، وتقييد عملياته، وتنويع الأصول، وبناء خطة اقتصادية طويلة الأمد، وغير ذلك مما لاتزال الدراسات العلمية تغرف منه وتطبقها على الاقتصاد المعاصر. وكما هي الطريقة التي أنتهجها في هذا المبحث فإني آتي بالمقصد، ثم أورد عليه آيات قرآنية، وهذه الآيات في طياتها دلالات علمية ألهمت الباحثين والمفكرين على استنباط قواعد وتطبيقات منها، وهذه القواعد مهما تشعبت فهي من وحي كتاب الله، وفي العمل بها إقامة لهذا المقصد التشريعي.

من أولى الآيات وأكثرها حديثاً عن جانب المال ومراعاة أفراده: آية الدين، ففي عرض قرآني فريد لهم أرباب الفكر وهداهم - بإذن الله - إلى وضع أسس محكمة لنظام اقتصادي معاصر يحفظ المال من طائلة الضياع والجحود أو زوال الحق بالتقادم، جاءت آية الدين وآيات أخرى، أنموذجاً قرآنياً ارتكزت عليها أنظمة القانون المالي، ودوائر التوثيق، وكتابات العدل والقضاء المدني، متجاوزاً حقوق الأفراد إلى المنشآت بكل أنواعها.

يقول الله تعالى في كتابه العظيم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) ٢١٣، وقوله: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُفُّوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) ٢١٤.

٢١٣ سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٢١٤ سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

شملت آية الدين وما تلاها من الآيات قواعد العمل الاقتصادي العادل، وقد أصلها القانون المدني، ومنها: الكتابة، الشهادة، المعاينة، الإقرار، اليمين، القرائن، وهذه القواعد هي عاثة التطبيق، إذ تنسجم مع الحقوق المالية، العينية، الشخصية، التجارية، ولا بد فيها من المشاهدة المحكمة لإثبات الأوصاف المادية وإحقاق حق الأطراف جميعاً<sup>٢١٥</sup>. وتعد آية الدين من أكثر الآيات القرآنية الواردة في صدد ما استنبط منه الواقع العلمي المعاصر، فجاءت الأبحاث والدراسات التي تناولت جوانب حفظ المال الواردة فيها.

لقد نما علم الاقتصاد نمواً باهراً في العقد الثاني لهذا العصر، وكان هذا النمو نحو الأفضل مما يخدم الإنسان ويعينه على الوصول إلى أهدافه المالية واستقلالية الدخل وتوثيق الأعمال التجارية والسندات والعقود وغيرها.

"أكدت الأبحاث المعاصرة على أن الأفكار الاقتصادية التجريبية لم تكن إلا نظريات لا تتوافق مع الواقع العلمي التطبيقي، حيث يصعب السير معها لإدارة المشكلات المالية المتكررة!

ومع أنّ هذه الدراسة عريضة إلا أن الباحث شدد فيها على ضرورة الرجوع إلى الأنظمة الاقتصادية الأساسية التي قامت عليها الممالك والحضارات، مشيراً إلى أن النظم الوضعية قد أثبتت إخفاقاتها المرتكزة على السوق الحرة، لأنها فقدت المرجعية واستبدلتها بالرأفاهية والإنفاق المالي غير المقنن.

ويكمل صاحب هذه الدراسة: أن ظهور الطفرات المعلوماتية، والتحوّل نحو المجالات الخدمية، وتقدم الأنظمة الاقتصادية يحتمّ جداً على علماء الاقتصاد العودة إلى جذورهم، ودراسة نقاط الضعف

---

٢١٥ زبيدات، باسم محود محمد. ١٤٣١-٢٠١٠. شرح قانون البينات الفلسطيني في المواد المدنية والتجارية لعام ٢٠٠١. نشر جامعة القدس. ص ٣٠١-٣٠٧.

والقوة"<sup>٢١٦</sup>. وفي خضمّ تسارع الحقبة الزمانية التي نعيشها اليوم، وكيف أنّها أثّرت على الاقتصاد وأثّرت، وتوسّعت ليدخل المجال الرقمي التقني الجوانب المالية والاستثمارية، حتى أننا أصبحنا نثق بالتعاملات الرقمية بيعاً وشراءً وتوثيقاً ومقايضةً وشكوىً... وما إلى ذلك مما حتمه علينا العصر الراهن، حتى إن الأمر تطوّر إلى إخراج الزكاة إلكترونياً وتقسيم الميراث والنفقات، فنمّت بناءً على ذلك أواصر عميقة بين المستخدمين وهذه الأرقام والتطبيقات العلمية التي سهّلت -ياذن الله- الحياة، وسرّعت دورة المال، وحفظت معها مقصدها الأسمى ما دام يدور في نطاق التشريع ولم يتجاوزهُ<sup>٢١٧</sup>.

تعبيراً على ماورد أعلاه ورجوعاً إلى الجذور الأساسية كما أكّد على ذلك الباحث: آدم سميث، واستكمالاً لعرض الآيات القرآنية ذات الدلالات العلمية المقاصدية التي تحقق مقصد حفظ المال برؤيةٍ عصريةٍ علميةٍ قوله تعالى: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)<sup>٢١٨</sup>، حيث وردت هذه الآية في سياق تقسيم الفيء، حتى لا يكون المال بين الأغنياء دون الفقراء، فكلّ ذي حقٍ له منه نصيبٌ مقرر شرعاً، وقد استنبط العلماء من هذه الآية العميقة القاعدة الاقتصادية: إعادة توزيع الدخل والثروة، وإن كان هذا الأمر يتعلق بأنظمة الدول ورؤاها إلا أنّ القصد هنا توزيع الدخل القائم على الأعمال الخيرية، والرعاية الاجتماعية، وغيرها من الأساليب التي تحقق التوازن المالي والاجتماعي، وتحقيق كذلك القصد الشرعي الهادف إلى توفير مستوى معيشي ملائم دون طغيان شريحةٍ على أخرى.

كذلك النقاش العظيم الذي تدرّج من التشجيع إلى التحريم في آيات الربا، وكيف أنه محقٌّ وسحقٌّ للأفراد والجماعات، وكارثة اقتصادية زادت سوءاً عن ما كان في الجاهلية البشعة، إذ يقول الله تعالى:

---

٢١٦ نوح سميث. ١٤٤١-٢٠١٩ صحيفة الشرق الأوسط. دراسة اقتصادية بعنوان: سبع طرق كي يعالج علم الاقتصاد ذاته. العدد

١٤٩٩٢. راجع الموقع التالي: <https://aawsat.com/home/article/2036046>

٢١٧ الفكرة مستنبطة من: صحيفة مال. . maaal.com. -١٤٤١. ٢٠٢١ مقال بعنوان: الثقة الرقمية. للباحث أحمد الغامدي.

٢١٨ سورة الحشر. الآية ٧.

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ

مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) ٢١٩، وقوله: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

أَثِيمٍ) ٢٢٠، وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ٢٢١ .

يقول الشيخ سيد قطب في تفسير آيات الربا وبيان خطره على الأمم وأخلاقها وقيام شؤونها: "

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداءً مع قواعد التصور الإيماني إطلافاً، ونظام يقوم على تصورٍ آخر، تصور

لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى، ومن ثم لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن

تقوم حياتهم عليها، إنه يقوم ابتداءً على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر، فالإنسان هو سيد

هذه الأرض ابتداءً، وهو غير مقيد بعهدٍ من الله، وغير ملزم باتباع أوامر الله.... والكارثة التي تمت في

العصر الحديث ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية: هي أن هؤلاء المرابين . الذين كانوا يتمثلون في

الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية . قد

استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل

التوجيه والإعلام في الأرض كلها، سواءً في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال

ودور السينما وغيرها، أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم

ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي، هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث

المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي،

وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب ، وأن الذين يريدون إبطاله جماعة

من الخياليين غير العمليين، وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا

٢١٩ سورة البقرة، الآية ٢٧٥ .

٢٢٠ سورة البقرة، الآية ٢٧٦ .

٢٢١ سورة البقرة، الآية ٢٧٨ .

رصيد لها من الواقع، وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه، حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته، ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه الذي تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجري جريئاً غير طبيعي ولا سوي، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة وينحرف عن أن يكون نافعاً للبشرية كلها، إلى أن يكون وقفاً على حفنة من الذئب .

يتابع الشيخ عرض بعض من الحقائق الصادمة، أعرض منها التالي: أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه، وشعوره تجاه أخيه في الجماعة؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة، أما في العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أخط وجوه الاستثمار، كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين، ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القذرة والصحافة القذرة والمراقص والملاهي والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيماً، والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشئ أنفع المشروعات للبشرية؛ بل همه أن ينشئ أكثرها ربحاً، ولو كان الربح إنما يجيء من استشارة أخط الغرائز وأقدر الميول، وهذا هو المشاهد اليوم في أنحاء الأرض، وسببه الأول هو التعامل الربوي . والحقيقة التالية: أن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوي ليست سوى خرافة، أو هي أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلاً، وأنه حين تصح النية، وتعزم البشرية، أو تعزم الأمة المسلمة أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد، الذي أراده الله

لل بشرية، والذي طبق فعلاً، ونمت الحياة في ظلّه فعلاً؛ وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلّاله، لو عقل الناس ورشدوا<sup>٢٢٢</sup>.

والخلاصة التي يستشققها طالب العلم: أن الله إذا حرم أمراً فهو حتماً لا قيام للحياة به، ولا تتقدم معه، وأنّ مثل هذه التعاملات القاتلة للدين والأخلاق والحضارات تتعارض مع المقاصد السامية التي جاء الشرع لصيانتها ونمائها، ومن هذا المنطلق تتابعت الدراسات والأبحاث التي تندّد وتحذّر من هذه التعاملات المالية الماحقة.

مروراً على سورة يوسف، تلك السورة التي عاجلت بفرائدها وفوائدها كثيراً من المشكلات الاقتصادية، وأصبحت أنموذجاً عبقرياً ينفذ المجتمعات - بإذن الله - من الهلاك في ظل الأزمات، يقول الله تعالى: (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ)<sup>٢٢٣</sup>، حيث استنبط العلماء اليوم من هذه الآيات قاعدة الاقتصاد التي تقوم على استراتيجية الزراعة الدائبة لتحقيق الأمن الغذائي<sup>٢٢٤</sup>، وكذلك توفير المخزون وعدم استهلاك كل إنتاج العمل، بل تخزين المحصول المقنّن هو النهج الأمثل لمواجهة الظروف

---

٢٢٢ الشاذلي، سيد قطب إبراهيم حسين. ١٩٨٦-١٤٠٦. في ظلال القرآن، نشر دار العلم بمجدة ودار الشروق بالقاهرة. ط ١٢، ج ١، ص ٣١٤-٣١٧. بتصرف.

٢٢٣ سورة يوسف. الآية ٤٧-٤٨.

٢٢٤ في هذه القواعد استفدت من المرجعين التاليين:

- الخاطر، خالد بن راشد. ٢٠٢٠-١٤٤١. قصة يوسف دروس في إدارة الأزمات الاقتصادية. مقالة منشورة في صحيفة العربي

الجديد الالكترونية. [www.alaraby.co.uk.economy](http://www.alaraby.co.uk.economy).

- القاسم، فهد بن عبدالله. ٢٠١٠-١٤٣١. يوسف العبقرية الاقتصادية دروس مستفادة. مقالة منشورة في صحيفة الاقتصادية

جريدة العرب. [www.aletq.com](http://www.aletq.com).

والكساد والأزمات، واستنبطوا منها أيضاً الموازنة بين الاستهلاك والادخار، بل وجعل الله هذه المزية من

صفات عباده: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) ٢٢٥.

وقد حوت سورة يوسف وكثير من سور القرآن الكريم نصوصاً عميقة المعاني، استنبط منها العلماء القواعد والحكم والإشارات الالامعة لقيادة مجتمع مسلم حضاري، يواكب تطور الزمان والمكان، بعقلية تجمع النقل والعقل، انطلاقاً نحو صلاح الحياة وتناغماً معها على هدىً وبصيرة، والحمد لله رب العالمين.

#### ٤. مقصد حفظ النسل:

حفظ الدين الإسلامي النسل، وجعل تحقيقه مقصداً شرعياً رفيعاً، إذ يمثل المقصد الرابع بعد حفظ الدين ثم العقل ثم المال، فمن أجل الدين أوجد الله الخلق، والعقل وعاء الإنتاج والحضارة، ثم حفظ المال الذي هو عصب الحياة، ثم حفظ النسل وهو تدرج ونتيجة لما سبق. أحاطت الشريعة حفظ النسل واعتنت به عنايةً تنأى بالإنسان عن مواطن الرذيلة والفساد الأخلاقي والديني، بل وصانته بسياجٍ منيع، ونظمت الدوافع والرغبات الإنسانية وجعلت الهدف منه أسمى من مجرد لقاءٍ فطري بين الرجل والمرأة، ففيه عمار الأرض، وتحقيق الخلافة، واستمرار العطاء والنماء البشري، ثم ازدهار الحضارات والقيم النبيلة.

جاء التأكيد على هذا المقصد العظيم لأن بزواله اختلاط الأنساب وتداخلها، ونسبة الأبناء إلى غير آبائهم، وتقسيم التركات، والحلوة، والمحارم، والديات، والكفائة وغيرها. وتناول القرآن الكريم في مواضع عديدة الحديث عن حفظ الأنساب، وحدود الاختلاط بين الرجل والمرأة، وتحريم الزنا ودوافعه، والزواج من القربات، وغيرها من الآيات التي استنبط منها العلماء الأحكام والشروط والثواب والعقاب.

وفي سبيل إيراد الآيات القرآنية التي تحدثت عن جانب حفظ النسل، ثم استنبط العلم الحديث منها دلالة علمية تؤكد هذا الصدد أتناول بالبحث قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)<sup>٢٢٦</sup> ، وقوله تعالى: (وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)<sup>٢٢٧</sup>، وقوله تعالى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)<sup>٢٢٨</sup>، وفي سورة الطلاق قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَخْصُوا الْعِدَّةَ)<sup>٢٢٩</sup> ومن المعلوم أ، هذه الآية جاءت في مدة عدّة المرأة التي تُوفّي عنها زوجها، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام تأتت محددات في كتاب الله، وبعد هذه المدة تستطيع المرأة الزواج مجدداً، إضافةً إلى تعلق هذه المدة بأمرٍ أخرى.

امتثالاً لأمر الله فإننا مأمورون بالأخذ بهذا المدة دون سؤالٍ عن السبب، وما علاقة هذه الآية بتحقيق مقصد حفظ النسل؟

ابتداءً فإن علماء التفسير تناولوا هذه الآية بالبيان والإيضاح، جاء في تفسير فتح القدير: لما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكر الإرضاع عقب ذلك بذكر عدة الوفاة، لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق. قال الزجاج: ومعنى الآية: والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً، أي: ولهم زوجات، فالزوجات يتربصن، وقال الفارسي تقيده: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم، ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة، فزاد الله سبحانه على ذلك عشراً، لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلاً ولا تتأخر

٢٢٦ سورة البقرة. الآية ٢٣٤.

٢٢٧ سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

٢٢٨ سورة البقرة، الآية ٢٣٢.

٢٢٩ سورة الطلاق، الآية ١.

عن هذا الأجل، وظاهر هذه الآية العموم، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) وإلى هذا ذهب الجمهور<sup>٢٣٠</sup>.

**وجاء في زهرة التفاسير:** في هذه الآية الكريمة يتبين عدة المتوفى عنها زوجها، وهي أربعة أشهر قمرية وعشرة أيام، وعبر سبحانه عن العشر بما يدل على أن المعدود مؤنث؛ إذ إنه حذف التاء، فدل على أن المراد عشر ليال والمؤدى واحد، ولكن التعبير بالليالي فيه فائدة أكبر من التعبير بالأيام؛ لأن فيه إشارة إلى أن تقدير الأشهر بالقمرية كما نوهنا؛ لأن الليالي هي التي تعرف فيها أحوال القمر وأدواره؛ فكان التعبير بها توجيهاً لما يكون فيها، وهو القمر بأطواره وأحواله<sup>٢٣١</sup>.

والحديث هنا عن تحديد العدة بالأشهر القمرية، وأنها هي المعتمدة في أحكام التشريع الإسلامي هو ذاته ما سبق الحديث عنه في المقصد الأول حفظ الدين. استناداً إلى أقوال العلماء المفسرين وجمعاً مع العلم الحديث الذي بذل دأبه في استنباط الحكمة الإلهية من تحديد هذه المدة دون غيرها، وانتهاءً بما وصل إليه العلم الحديث اليوم وصولاً إلى تحقيق مقصد التشريع الإسلامي بحفظ النسل وإن تطورت آلة الزمان والمكان تبقى الآيات القرآنية المرشد الأول.

العلم اليوم يقول إن عدة المتوفى هي لأجل التأكد من عدم حمل، حتى لا تختلط الأنساب وتجرؤ وراءها كثيراً من المشكلات، وأصبح الكشف اليوم أسهل بوجود الإشاعات المرئية والمسموعة والتحليل المتقدمة التي تثبت في ذات اللحظة هل المرأة حامل أم لا، ومع ذلك فإن هذا الأمر -رغم تطوره- لا يكفي للقطع التام بتحديد الشرع هذه المدة.

٢٣٠ الشوكاني، محمد بن علي. ١٤١٤-١٩٩٤. فتح القدير. نشر دار ابن كثير: دمشق سوريا. ١/ ٢٨٤-٢٨٥.

٢٣١ أبي زهرة، محمد أحمد مصطفى. ١٤٢٤-٢٠٠١. زهرة التفاسير. نشر دار الفكر العربي بمصر. ٢/ ٨١٦.

في سبيل هذا الصدد، وتوفيق الله استطعت الجمع بين بعض الأبحاث العلمية وبين أقوال العلماء المفسرين، ودلالات الآيات القرآنية أن أستنبط سرّ التحديد الإلهي لهذه المدة دون غيرها، وذلك رغم تقدم آلة الزمن الحديثة، ليساهم الأمر في نهاية مطافه على تحقيق مقصد حفظ النسل، ومخاطبة الواقع اليوم بخطابٍ دينيٍّ حضاريٍّ محقق.

خلاصة ما وقفتُ عليه أن ماء الرجل يحتوي على ٦٢ نوعاً من البروتين وأن هذا الماء يختلف من رجل إلى آخر فلكل رجل بصمة في رحم زوجته، وإذا تزوجت من رجل آخر بعد الطلاق مباشرة، قد تصاب المرأة بمرض سرطان الرحم لدخول أكثر من بصمة مختلفة في الرحم، فأول حيض بعد فراق المرأة يزيل من ٣٢ في المئة إلى ٣٥ في المئة، وتزيل الحيضة الثانية من ٦٧ في المئة إلى ٧٢ في المئة منها، بينما تزيل الحيضة الثالثة ٩٩,٩ في المئة من بصمة الرجل<sup>٢٣٢</sup>، وتزيد هذه المدة بشهرٍ وعشرة أيام نزولاً إلى الأسباب التالية:

أنه لما كان الفراق بالوفاة أعظم ودون اختيار طالّت المدة وفاءً واحتراماً لمصيبة الموت، إضافةً إلى التحقق التام من براءة الرحم وتحرك الجنين من عدمه، لأن المتوفى عنها زوجها إن أنت بولدٍ وتحرك متأخراً فإن نسبه يلحق بأبيه، فالاحتياط بطول مدة العدة عن عدة المطلقة<sup>٢٣٣</sup>.

هذه الاستنباطات العلمية ما كانت لتجيء لولا أن القرآن الكريم أثبتّها وأقام عليها كثيراً من الأحكام، وحقق على الأخذ بها المقاصد الشرعية، ولأن الدين مناطه التسليم والاعتقاد المطلق والحجة

---

٢٣٢ بابكر، فيصل باكر. ٢٠١٨-١٤٤٠. دراسة بحثية بعنوان الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وأحكام عدة المرأة. على موقع التالي: [www.alhurra.com](http://www.alhurra.com)  
في هذه المسألة راجع المقالات التالية:

- الشيخ المنجد، محمد بن صالح. ٢٠٠٩-١٤٣٠. مقال بعنوان الحكمة من زيادة عدة المتوفى عنها زوجها عن المطلقة. موقع الإسلام سؤال وجواب. [islamqa.info](http://islamqa.info).  
- مقالة منشورة بتاريخ ١٤٢١-٢٠٠١. عنوانها: الحكمة من اختلاف عدة الوفاة عن الطلاق. على موقع: [islamweb.com](http://islamweb.com)

الثابتة، والعلم مناطه التجربة والتغيّر والاختبارات، والعقل البشري يتكيّف مع تداعيات الزمان والمكان والمادة، وبسبب كثرة الشبهات والأفكار الضالّة وحاجتنا إلى فتح منافذ جديد لإقناع غير المسلمين بسلامة هذا التشريع العظيم ممّا يُتهم به من الجمود والتخلف، وزيادة إيمان المسلمين أنفسهم الذين تلقّفتم أيادي الإعلام والتضليل وبذلت الجهد لزعزعة هذه الثوابت، لهذه الأسباب وغيرها كان البذل في هذه الدراسة، وفي خلاصتها أوكد على أنّها ليست تطويع القرآن للعلم وليّ أعناق نصوصه -حاشا وكلاً- بل الهدف إرجاع العلم التطبيقي إلى المنبع الأصلي، واستنباط المقاصد الشرعية السامية التي تحقق مصالح العباد والبلاد

٥. مقصد حفظ النفس:

لقد أولت الشريعة الإسلامية النفس اهتماماً بالغاً، لم يكن هذا الاهتمام في دينٍ أو شرائع سابقة، بل ربما لا أبالغ إن قلت أنّ الحياة قاطبةً لم تشهد ديناً يضع الأحكام ويحد الحدود ويحقق المصالح ويدفع الشرور كما هو في شريعتنا العزّاء، وهذه هي الحقيقة الصّادحة، ليست ادّعاءاتٍ وشعاراتٍ فارغة. وإنّ الحقيقة التي يعرفها المسلمون أنّ هذه الحقوق مكفولةً بتدابير وقائية، تقطع الطريق أمام الجرم وأهله، وتردع نزوات النفس أن تقع، وقننها الشارع بعقوباتٍ رادعةٍ تنظّم الحياة وتحفظها، حتى لا تكون كالغاب، قويّها يتسلّط على ضعيفها، هذا فضلاً عن الأساليب التربوية التي تجعل النفس الإنسانية أكثر أماناً واطمئناناً.

جاءت النصوص القرآنية تعضد بعضها بعضاً لتحافظ على النفس البشرية للتأكيد على أنّ الشريعة لم تعتبر حفظ هذا المقصد شيئاً عابراً، بل كان تحقيقه بشتى الوسائل أمراً هاماً ضرورياً، وبصيانته تقوم مصالح الدين والدنيا. وكما جرى العمل في هذه سبيل تحقيق هذه المقاصد فإنّ مستعينةً بالله أورد النص القرآني الذي يناقش تحقيق حفظ النفس، وكيف أنّ العلم الحديث بنى استنباطاته على ضوء ما أثرى القرآن الكريم، والخلاصة أنّ هذا المقصد متحقق بإذن الله أصالةً وابتداءً، متكيّ على ما هدانا الله إليه من التطبيقات العلمية المعاصرة التي تؤكد صراحةً وضمناً أنه ما من علمٍ إلّا وله في كتاب الله جذور ودلالات.

في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) ٢٣٤، وقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ٢٣٥، وفي ذات الصدد في موضع آخر من السورة في سياق الحفاظ على الأنفس قال الله، (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ٢٣٦، إذ أخبرنا الله أنّ في القصاص حياة، ثم بعد ذلك ينهانا عن إهلاك أنفسنا، ويدعوا إلى رعايتها، كما يدعوا إلى الإحسان. وجاء في تفسير ابن كثير: (ولكم في القصاص حياة) يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم -وهو قتل القاتل -حكمة عظيمة، وهي بقاء المهج وصورها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النفوس، فالقتل أنفى للقتل، وقد جاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز، وفيه قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل، ورؤي كذلك عن جمع من التابعين. (يا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) يقول: يا أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالنُّهَى، لَعَلَّكُمْ تَنْزَجِرُونَ فَتَتْرَكُونَ مُحَارِمَ اللَّهِ وَمَأْتَمَهُ، وَالتَّقْوَى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات. أمّا في الآية الثانية (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) فورد فيها: ولا تقبضوا التهلكة أيديكم، أي لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم، وقيل (بأيديكم) بأنفسكم: وقيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها، والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقتال والإضرار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو ٢٣٧.

٢٣٤ سورة البقرة، الآية ١٧٨.

٢٣٥ سورة البقرة، الآية ١٧٩.

٢٣٦ سورة البقرة، الآية ١٩٥.

٢٣٧ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. ١٤٢٠-١٩٩٩. تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير. نشر دار طيبة بالرياض، ط٢، ج١، ص٤٩٠-٤٩١. بتصرف.

في هذه الآيات حين شرع الله القصاص، ما شرعه إلا لضبط حياة البشر وتنظيمها، وتحقيق مقصد حفظ النفس وحمايتها، ذلك أن الأنفس إذا لم تُحَدَّ بالقوانين انفلتت وطغت في الأرض وتجاوزت بلا وجه حق، وحينها يعم الظلم والفسوق، إضافةً إلى انعدام الأمان في الأنفس والممتلكات، فلا تقوم قائمة.

والقوانين الجنائية اليوم شرّعت القصاص، إيماناً بأثره الرادع، وقد وقفتُ على كثيرٍ من اللوائح الصارمة والعقوبات المترتبة جزاء الاعتداء على الأنفس، من ذلك القانون العراقي والإيراني والسعودي، وهي مبنوثة في مواقعها الالكترونية ومتاحة للاطلاع<sup>٢٣٨</sup>.

في أمودج قرآني آخر يعزّز مقصد حفظ النفس:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم في قصة محاض السيدة مريم -عليها السلام-: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا)<sup>٢٣٩</sup>.

في معجزة السيدة البتول -مريم- رضي الله عنها وردت هذه الآيات، لا لتركز على قصة المخاض الذي هو من طبيعة بنات حواء، ولا عن مقدار الألم النفسي الذي اتهمها به قومها، ولكن لبيان الإعجاز الإلهي في خلق نبي الله عيسى ابن مريم -رضي الله عنهما وأرضاهما- من غير أب، فكان حملاً خفيفاً، خاطبها الله في مخاضه، وسحّر لها خلقه من قبل ومن بعد، ولقد جاء في بيان معاني هذه الآيات:

٢٣٨ [www.moj.gov.sa](http://www.moj.gov.sa) / [arabic.iranpress.co](http://arabic.iranpress.co) / [iraql.d.hic.iq](http://iraql.d.hic.iq)

٢٣٩ سورة مريم. الآيات ٢٣-٢٤-٢٥-٢٦.

ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسريّ والرطب؟ قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنهما من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

وقالوا: التمر للنفساء عادةً من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وكان من العجوة، وما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل، وإذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، وقوله (جَنِيًّا) أي جمعنا لك في السريّ والرطب فائدتين، إحداهما: الأكل والشرب، والثانية سلوة الصدر، لكونهما معجزتين، وهو معنى قوله (فَكُلِّي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا) أي وطبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزرك وأهملك<sup>٢٤٠</sup>.

ولوهلة فإن قارئ هذه الآيات العظيمة، ودوران أحداثها، وتهيئة النخل ذا التمر الرطب عاضداً للسيدة مريم -عليها السلام- وإنقاذها به بإذن الله وتخفيف الآلام عنها، وسلوة نفسها هي في نهايتها تأكيداً على معجزة الله بولادة نبيه، ثم تسخير المكان والزمان لحفظ هذه النفس البشرية الطاهرة أن ينهكها ألم الولادة، أو يصيبها النزف فتفارق الحياة وقد وضعت مولودها!

من خلال دلالة السياق النصي القرآني تبين لي أنه لو كان القصد هنا معجزة ولادة نبي الله عيسى

-عليه السلام- وحسب لدارت أحداث القصة عليه، ولكنه كتاب الله الذي لا ينطق عن

هوى، وهو الذي لو بقيت الأفهام تسير في فلكه ما أحاطت عجائبه.

يعلمنا الله في كتابه العظيم أن التمر ذا فوائد عظيمة للنفساء، وإلا لماذا اختار الله التمر دون

غيره من الثمار ليكون غذاءً للأم يعوّضها عن الألم الجسدي والنفسي؟

٢٤٠ الزمخشري، أبو القاسم بن محمود. ١٤٠٧-١٩٧٨. الكشف في حقائق غوامض التنزيل. نشر دار الكتاب العربي، بيروت. ١٤ / ٣

في هذا الصدد وبعد أن أثبت القرآن الكريم حرصه الشديد على سلامة الأنفس وسعيه للمحافظة عليها من خلال هذا السياق الفدّ، يستنبط العلم التطبيقي تعقيباً على ما ورد في كتاب الله مفادها أن الله تعالى يعلم أن الحزن يضر بالجنين فنهاها عن الحزن، ويعلم أن الحركة والرياضة الخفيفة للأم مفيدة فأمرها أن تهمّز جذع النخلة ، وهو يعلم أن أفضل غذاء للأم الحامل هو التمر لما يحويه من عناصر غذائية ضرورية فأمرها بأكل هذه الثمرة، ويعلم أن الحالة النفسية تؤثر على الجنين فأمرها أن تفرح وتقرّ عينها، وقد استنبط العلماء كل الدراسات بناءً على التوجيهات القرآنية، وأولها أن تعرض المرأة لضغوطٍ نفسية أثناء فترة الحمل ربما يجعل المولود أكثر عرضة لخطر الإصابة بالربو، وأن الحالة النفسية المضطربة للأم الحامل تؤذي الجنين وقد تصيبه بتشوهات، وقد تؤثر على مستوى ذكائه، وأن ممارسة الحامل للتمارين البدنية قد تحسّن صحة الجنين وتساعد في منع وفيات المهدد، لأنها تساعد في نمو الجهاز العصبي، حيث يعتقد الباحثون إنه المسبب وراء الظاهرة التي يقف العلم عاجزاً عن تفسيرها أو إيجاد وسائل لمنعها !

واكتشف الباحثون أن نبض الجنين في الرحم ينخفض ويتحسن تنفسه إذا ما كانت الأم نشطة بدنياً أثناء المخاض وقبله.

أما عن تخصيص الله التمر دون غيره وكيف أنه - بإذن الله - يكون سبباً قوياً في حفظ النفس سواءً حال المخاض أو غيره كان الاستنباط القائم على الآية الكريمة يبيّن أن من تركيب التمر وما يحويه من مواد وعناصر غذائية هو غذاء مثالي للأم الحامل، فالتمر يساعد على تقلص عضلات الرحم مما يسهل عملية الولادة، وهو سهل الامتصاص ومفيد للأمعاء، وهو مفيد للجنين أيضاً حيث يحوي الفيتامينات والمعادن الضرورية لنموّه، ويعود - بإذن الله - أثر الوقاية الصحية في التمر إلى احتوائه على

مجموعة كبيرة من العناصر الغذائية، أهمها الحديد والمغنسيوم ومجموعة فيتامين (ب) ومادة الفلوريد التي تزيد نسبتها في التمر عن الفواكه الأخرى بخمسة أضعاف<sup>٢٤١</sup>.

وبالجمع بين توجيه النص القرآني، ورأي علماء التفسير، ثم استنباط العلم الحديث نصل إلى أن الله علمنا كيف تحفظ الأرواح عن الهلاك، وما هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع حالات المخاض كونها من الحالات المتكررة المؤدية إلى الوفاة، إذ جعل الله الثمرة المباركة سبباً في تحقق حفظ النفس - بإذنه-. وكان المرور على قصة سيدتنا مريم -عليها السلام- أنموذجاً ثرياً في حفظ حياة النفس من جنس الحياة نفسها، وتعلماً لنا أن نأخذ بالأسباب ونستنبط من قلب تشريعنا الحلول والمخارج الواعدة، ونحقق المقاصد الشرعية بقراءة عميقة فاحصة لما جاء في الوحيين، تلك القراءة التي تنطلق من الأصول المقررة، وتستصحب العلوم والفنون المعاصرة، ذلك أن السعي إلى مقصد حفظ النفس وما سبق من المقاصد مطلبٌ مهم منوطٌ على كل مسلمٍ ومسلمة، لأنه إذا صلحت النية وحسن العمل بلغ الإنسان غايته.

٢٤١ في هذه الدراسات العلمية حاولت الإفادة من المنشورات والمشاهد المرئية والمسموعة، ومن باب إيراد أهمها راجع المواقع العالمية التالية:

- الموسوعة العلمية للشيخ عبد الدائم الكحيل: [www.kaheel7.com](http://www.kaheel7.com)

- شبكة البوابة العلمية: [www.albawabhnews.com](http://www.albawabhnews.com)

- شبكة تفسير المنصّة: [www.almnsa.com](http://www.almnsa.com)

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA  
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية  
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

## المبحث الثالث

### العلم في ميزان التشريع

تمهيد

عظّم التشريع الإسلامي العلم وأهله، فقد ورد في القرآن والسنة وآثار الصحابة والتابعين الكثير من الأدلة والسياقات التي تعزّز مكانة العلم وتدعو إليه. كيف لا تهتمّ شريعتنا الغراء بالعلم وهو النور الذي أضاء الله به الأفهام فهدى العباد بإذنه من الضلالة، وهو الذي لولاه عاش الناس في تحبّط وظلام، وهو الذي لولاه ما استطعنا أن نعبد الله حق عبادته ثم نقيم أمور ديننا! وكلّ الشواهد حولنا آثار ناطقة بتسخير الله العقل البشريّ أن يستوعب العلم، فيصنع وينتج، ويحاور وينظر وصولاً إلى الحقيقة، ويبتكر أسهل الطرق لحياة أكثر أماناً وحضارة.

ولقد كان العلم والبحث عن الحقيقة هدف الإنسان منذ قديم الزمان، ولا يزال هذا الهدف ينمو لاسيما مع تطور العلوم وتساارعها، فقد شغل الإنسان فكره وجسده وهو يبحث في علوم الدين والدنيا والعقيدة والسلوك وكل شيءٍ حوله، كل ذلك ليرى مدى استفادته من مكينات هذا الكون المسخّر له، ويبحث عن أرقى طرق العيش بسعادةٍ وهناء مع أخيه الإنسان.

ولقد كانت الحقائق العلمية ولا تزال تتبع بعضها بعضاً، كحقيقة خلق الكون والإنسان، وحقائق الاكتشافات والمخترعات، وحقائق اليوم الآخر والبحث والحساب والجزاء، ومع التدفق العلمي الذي يشهده عصرنا اليوم إلا أنّ الإنسان لا يزال يختلف في تفاصيل هذه العلوم، فتارةً يجد مبرراً لما اختلف فيه، وتاراتٍ يتبع هواه صارفاً فكره لكل ناعقٍ يضلّل الحقائق، وفي هذا قال تعالى: (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ

مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ<sup>٢٤٢</sup>. وكان من آثار هذا الخلاف العلمي أن يمتدّ بين الناس متجاوزاً الجوانب الفكرية إلى جوانب العقيدة والعلاقات الاجتماعية، إذ كلٌّ ينسب الحقائق إليه وينسف ما قبلها، ولو كان في المختلفين عقلٌ لانهصر النقاش في مسائل العلم دون أن يتطرّق إلى ثوابت الإيمان، ولكنها فطرة الإنسان الجدليّة التي جبله الله عليها. في هذا المبحث سأتطرّق بإذن الله إلى الأدلة الواردة في فضل العلم، وخصائصه، ومطلقات طالب العلم، وأخيراً الحديث عن العلم والحياة.

#### - أدلة فضل العلم في التشريع الإسلامي:

تناول القرآن الكريم في كثيرٍ من المواضع الحديث عن العلم سواءً كان علم الدين أو الدنيا، ولا غرو إذ أحصى العلماء ورود كلمة العلم ومشتقاتها فيما يزيد عن ثمانمائة وخمسين مرة، فلا تكاد تخلو سورة إلا وفيها دعوة إلى العلم إما بصريح العبارة أو تلميحها. قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)<sup>٢٤٣</sup>، وفي تفسير هذه الآية جاء: أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل، (الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) العلم، وهو في وصف المخلوق على ضربين: محبوب مكتسب للعبد، وموهوب من قبل الربّ، ويقال مصنوع وموضوع، ويقال علم برهان وعلم بيان، فالعلوم الدينية كلّها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام<sup>٢٤٤</sup>. وهذا يجزم لنا قطعاً حرص التشريع على أبنائه أن يربأ بأنفسهم عن الجهل والتراجع الفكري والحضاري، لما للجهل من آثار وخيمة يجنيها الفرد والجماعة.

٢٤٢ سورة الجاثية، الآية ١٧

٢٤٣ سورة الزمر، الآية ٩

٢٤٤ القشيري، عبدالكريم بن هوازن. ١٤٢٨-٢٠٠٧. لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مصر. ٢٧٢ / ٣.

يخاطب الله العقول أن تأخذ العلم عن طريق القراءة، فالقراءة مفتاح التحصيل، وبها يتعلم الإنسان فيعلم وينتج ويصلح أمور دينه ودنياه، قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ٢٤٥. وفي موضع آخر يخبرنا الله سبحانه أن العلم واسعٌ كالمحيط لا ساحل له، لكن حسبنا منه ما يرفعنا عن الجهالة ويضعنا على الطريق القويم، وحسب الإنسان كذلك أن يزيده العلم تواضعاً واعترافاً بنعمة الله عليه، ويحثه على طلب المزيد وكشف كنه الحقائق، قال تعالى: (تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ٢٤٦، وقوله: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ٢٤٧.

وحيثما يرغبنا الله في الأجر العظيم الذي أعدّه لطالب العلم وأهله، فقال: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ٢٤٨. ومن أعظم الآيات القرآنية التي عظمت العلم وطلبه قوله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) ٢٤٩، كذلك الأمر الرباني بالرجوع إلى أهل العلم لحلّ المشكلات وما استجدّ من مدلهّماتٍ سواءً في أمر الدين والدنيا قوله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ٢٥٠. ومن تعظيم الله للعلم والعلماء جعلهم شهوداً على تفرّده وتوحّده سبحانه، وهذا من عظيم التشريف والتكليف، لأن في كل خلقٍ لنا شاهدٍ يدلّ على أنه الواحد، إذ يقول تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ٢٥١.

وأخيراً فإنّ هذه الشواهد غيضةٌ من فيض القرآن الكريم والتشريع عامّة، إذ بالعلم يسمو الإنسان سموّاً يرقى به من مراتب البهيم، فالعق الذي ميّز الله به الإنسان على الحيوان ما خلُق إلا ليكون أداةً للعلم

- 
- ٢٤٥ سورة العلق، الآية ١.
  - ٢٤٦ سورة يوسف، الآية ٧٦.
  - ٢٤٧ سورة الإسراء، الآية ٨٥.
  - ٢٤٨ سورة المجادلة، الآية ١١.
  - ٢٤٩ سورة طه، الآية ١١٤.
  - ٢٥٠ سورة النحل، الآية ٤٣.
  - ٢٥١ سورة آل عمران، الآية ١٨.

والتمييز بين الصالح والطالح، فاستغلال العقل وتوظيفه سلامةً من الآفات الحسّية والمعنوية، ورفعته في

الدارين بإذن الله، يقول الشاعر<sup>٢٥٢</sup>:

فخالط رواة العلم واصحب خيارهم فصحبتهم زين وخلطتهم غنم  
ولا تعدون عينك عنهم فإنهم نجوم هدى إن غاب نجم بدا نجم  
فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم

#### - خصائص العلم:

بحث العلماء في خصائص العلم، وهي في جملتها الخصائص العامة التي تتفق فيها كل أنواع العلوم، ويلتقي معها العلم الذي أبحث في مادته وهو المعنى بدراسة المقاصد الشرعية خلال التطبيقات العلمية الحديثة. ولعلّي أعرض هنا أبرز ما وجدته من خصائص وهي:

- أولاً: العلم يطلق على الإحاطة بعلم معين له أجزاء عديدة من المعارف الجزئية.
- ثانياً: العلم له موضوع مستقل ومنهجه الخاص به.
- ثالثاً: العلم شيء موضوعي يمكن التحقق من صدقه من خلال الدراسة والتجربة أو اتباع منهج مناسب لهذا الموضوع.
- رابعاً: العلم يكون يقينياً، أو هو ما ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا تبقى معه ريبة ولا يقارنه إمكان الغلط.
- خامساً: حقائق العلم تقبل التغيير والتعديل: لأنها مبنية على نص ثابت، فهي تتغير وفق الواقع بما لا يخالف النصّ، فإذا وافقت الحقيقة النصّ كان العمل بما، وإذا خالفته يكون التعديل عليها

٢٥٢ شيخو، رزق الله يوسف. ١٣٣١-١٩١٣. مجاتي الأدب في حقائق العرب. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت. ج٣. ص ١٣٥.

بما لا يخرج عن النصّ الشرعي، وهذا يدلّ أن التعديل لا يكون قطعاً على النصّ والثوابت، بل يكون على الأمور المكتشفة والتطبيقات العلمية المندرجة تحت هذا النصّ، ذلك أن العلوم تنطور ويعضد بعضها بعضاً.

• **سادساً:** من خصائص العلم أنه يصحح نفسه بنفسه: وذلك بناءً على الثوابت العلمية المؤكدة، والنظريات المتجددة، والاستفادة من التجارب التاريخية السابقة، فمرونة العلم وانفتاحه تضمن تصحيح الخطأ.

• **سابعاً:** من خصائص العلم التراكمية والبناء: وذلك مثلاً أن أبحاث في هذا المجال، ويأتي من بعدي ليضيف ويكمل المسيرة من جهةٍ أخرى، وكما أفدث من الدراسات السابقة وأدبيات البحث يكون كذلك، وفيما يتفق مع المقام هنا أن يتناول عالمٌ تفسير بعض الآيات تفسيراً علمياً، ويأتي عالمٌ ثانٍ فيفسرها نحوياً، وبين هذا وذاك يكون لطالب العلم النجيب مدخلٌ يستنبط منه تفسيراً يخدم الأمة منه<sup>٢٥٢</sup>.

#### - منطلقات طالب العلم:

أتحدث هنا عن المنطلقات الأساسية التي ينطلق منها طالب العلم وبها يتسلّح قبل الدخول في الميدان الدعوي المليء بالمستجدات والتحديات، لأنه لن يتوقف على النصوص، بل يعمل العقل مع النقل للوصول إلى المقصد الشرعي، إذ لن يعيد ما صنّفه السابقون وحسب، بل سيضيف إليه الفهم

٢٥٣ في خصائص العلم راجع: يالجن، مقداد محمد علي. ١٤١٣-١٩٩٢. علم الأخلاق الإسلامية. دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض. ص ٣٠-٣١ & شبكة جامعة بابل، كلية التربية الإسلامية. تقديم الأستاذة: ابتسام جعفر جواد.

السليم لمواكبة الشرع الحياة، أن نجعل واقعنا وأفكارنا واكتشافاتنا وكلّ أحوالنا لا تنفك عن شريعتنا، فتقدم الحياة وتزدهر بما يتماشى مع النصّ الثابت الذي نفهم منه قصوده وندرك غاياته<sup>٢٥٤</sup>.

من هذه المنطلقات المهمة أن يكون العالم أو الباحث وكل من تولى مهمة الإصلاح مخلصاً صادق النية، في نفسه وعمله وكلّ ما تحت يديه، فإنّ من الله علينا عيناً ناظرة، إذ يقول تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)<sup>٢٥٥</sup>، والعبادة هنا تشمل كل ما يقوم به الإنسان وقيم حياته مادام ينوي النفع، حتى إن بعض العلماء ربط بين الإخلاص والتمكين، ولعلنا نستنبط هنا سبب تأخر تمكيننا ما نراه بيننا من هوانٍ وتراخٍ وفسادٍ في النوايا، هذا إلى جانب طغيان حظوظ النفس والمباهاة، وهذا لا يكون إلا بتصحيح النية، وتنقية الباطن مع سلامة العمل الظاهر، وهذا لا يتعارض مع طلب الدنيا، إذ أنّ من العقل إقامة الإنسان أمور دنياه بصلاح دينه، ويدخل في هذا كل أنواع الأعمال والعلوم مادامت تقيم الحياة بسلامة النية .

المنطلق الثاني لطالب العلم علوّ المهمة، فراغب النفع دائماً يطلب المعالي من كل شيء، وهذه الهمة وليدة الإنسان فمقلّ ومستكثر، إذ يُروى أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأتي وهو طفل فيجلس عليه، فيقول عبد المطلب: إن لابني هذا شأنًا. وإنّ مما يثبّط الهمة ويؤخر عن طلب العلم أن تطاع النفس في تلبية كل ما تشتهي، فهذا شتاتٌ لأمر الإنسان وصرفٌ له عن الإنجاز وتقييدٌ عن التقدم، ويثبطها أيضاً أن يصاحب المرء ساقطي الهمم، ويخالط من لا همّ له، فتراه يبتعد عن المعالي ويرتع في البطالة. ومن المنطلقات أيضاً أن يحدد طالب العلم

---

٢٥٤ في منطلقات طالب العلم راجع: يعقوب، محمد حسين. ١٤٢٢-٢٠٠٢. منطلقات طالب العلم. المكتبة الإسلامية، القاهرة. أيضاً راجع: المقدسي أبو الفرج، عبد الرحمن بن محمد. ١٣٩٨-١٩٧٨. مختصر منهاج القاصدين. مكتبة دار البيان، دمشق. أيضاً راجع: الجوزي، جمال الدين أبو الفرج. صيد الخاطر. ١٤٢٥-٢٠٠٤. نشر دار القلم، دمشق. ٢٥٥ سورة البينة، الآية ٥.

مساره، ماذا يريد أن يتعلم ومتى وكيف..، وهذا بعد أن يتعلم ما يصحّ به الدين وتقوم به العبادة، ويركز جهده على الفائدة المرجوة من سلوك هذا السبيل أيّاً كان، مستحضراً باعث هذا العلم وهو إصلاح نفسه ثم نفع الآخرين، وهذا ينطبق على كل أنواع العلوم التطبيقية والنظرية، إذ لا ينبغي للمسلم العاقل أن يكون كالسراج مضيئاً لغيره محرقاً لنفسه، وفي هذا يقول الإمام ابن قدامة -رحمه الله- فكن أحد رجلين: إمّا مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك. والمنطلق الأخير: أن يكون لطالب العلم ملكة فقهية تمكنه من التعامل مع الواقع المتغير بمنهجية شرعية، لأنه سيكون حينئذٍ مدرك لحجم الأزمات الحاضرة والمستجدات العصرية التي يمرّ بها العالم الإسلامي، فكلما ظهر لنا عالم تجريبي أو مكتشف وبدا لوهلة معارضته النصّ قامت الخلافات الواسعة، وأقرها مثلاً نعايشه الاختلافات الطيبة التي لا تزال تأخذ حيزاً من البحث والمسائلات، إضافة إلى الخلافات المستمرة بين الفلكيين وعلماء الدين، والخلافات في المسائل الاقتصادية البنكية وغيرها من المسائل الماسّة التي نلاحظ افتقارنا فيها إلى الفقيه المتبصر الذي يجمع بين العقل والنقل، أعني قراءة الواقع بعقلية متجددة مع الثبات على النصّ ومقاصده، يقول تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)<sup>٢٥٦</sup>.

عوداً على بدءٍ أستشهد بحديث الرسول ﷺ حيث قال: "من سلك طريقاً يتبعني فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر

الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن

أخذ به أخذ بحظ وافر" ٢٥٧

## - العلم والحياة:

تسخير العلم ونشره هبة الله للبشرية، إنها نعمة عظيمة أن جعل الله العلم مشاعاً بين البلدان، فحيثما وُجد الفكر السليم نما وزاد تاركاً آثاره الشاهدة وحضارةً وعلوًّا. ونتوقف هنا عند العلم الشرعي وكيف أنه ينسجم مع الحياة، وأقصد بالشرعي هنا كونه الشامل الذي حوى مناقشة كل كبيرة وصغيرة، إذ تناول القضايا الواقعية بمنطق سليم، فالحقيقة الواضحة بنص صريح أو دلالة هداية إلى حل مشكلات العلم والحياة والتقدم المأمول في كل المجالات، وبهذا التقدم يكون تحقيق المقاصد الشرعية بفروعها الخمسة.

نطالع في القرآن الكريم كثيرًا من الآيات التي تدعو إلى التفكير وإعادة النظر في العوالم حولنا، يحثنا الله عز وجل في كتابه أن نستخدم الحواس والعقل معاً، هذا أمرٌ إلهي غايته صلاح الدين والدنيا وثمرته تحقيق التفكير والتدبر، يقول تعالى: (فَلْيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) ٢٥٨، وقوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) ٢٥٩، وقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) ٢٦٠.

٢٥٧ أخرجه الترمذي (٢٦٨٢) ك العلم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٥٩).

٢٥٨ سورة النمل، الآية ٦٩.

٢٥٩ سورة الحج، الآية ٤٦.

٢٦٠ سورة فاطر، الآية ٢٧.

يخاطب الله عقل الإنسان المتطلع دائماً إلى التقدم والتجديد، فتارةً يكون التعلم بالضرب في الأرض والتفكير في العوالم ومسيرة الكون، وحيناً بإعمال النظر والسمع والبصر والتأمل الدقيق لحركة المخلوقات وتكون الحضارات مدى السنين، وأيضاً يتعلم الإنسان حين يلاحظ أنّ هذه الآيات كانت ولا تزال أمثالاً شاهدةً على ما يعيشه ويتناوله، فما كان هو منه "الماء" دخل في تكوين أعظم المخلوقات "الجبال" وإن اختلف المركب العلمي بالفكرة واحدة!

إنها لمحة إلهية أن يكون الفكر حرّاً في ملكوت الله وآياته، سابراً أعماق النصوص القرآنية، مستنبطاً منها المقاصد وصولاً إلى الحقائق العلمية، تلك الحقائق التي تبني الحياة الرشيدة وتحقق النفع الحالي والمآلي وتحافظ على قيم الدين والعقيدة والأخلاق، هذه الثوابت لا تمسّ وإن وصل العلم أقصى مراحلها، ويتحقق التوازن الأخلاقي الديني والعلمي الحضاري تكون الأمة الراشدة.

ومع هذا أريد التأكيد على ملاحظتين مهمتين في مسألة العلم والحياة:

أ. صحيح أن العلم يُعنى بالحقيقة والاستنباط والملاحظة، والدين يُعنى بالقيم والعقيدة والأخلاق، ولكن طلب العلم أساساً يقوم على البحث عن الحق ويهدف إلى العدل والإصلاح فالتعاون المأمول هنا هو تضافر رجال العلم ورجال الدين في سبيل خدمة العقل الإنساني والرقّيّ به من الفكر العلميّ البحث إلى الدين الذي فيه السعادة والرفاهية والعيش الآمن.

ب. إن مسألة تطويع الواقع الحيّاتي للنصّ الشرعيّ أمرٌ ينبغي فيه الاحتكام إلى أهل الدين والعلم ممن عرفوا الأحكام والأدلة وأقوال العلماء واطّلعوا على اختلافات المذاهب، حيث لا ينبغي بحال أن يبحث صاحب الصنعة عن مخرج شرعيّ لما بين يديه دون الرجوع إلى أصحاب الاختصاص، فلكل فنّ رجالته، وقد ذكر ابن عطية في هذا الصدد ما نصّه: "من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" وقال: "وفي هذا أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيشير عليه برأيه دون نظريّ فيما قال العلماء أو

اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا أن يفسّر اللغويون لغة القرآن، والتّحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحدٍ باجتهاد مبنيٍّ على قوانين علمٍ ونظر، فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه، أما البحوث العلمية والإنجازات والأفكار والمكتشفات كلها اجتهادات تقبل الخطأ والصواب، شأنها شأن الأعمال البشرية، لذلك وجب فيه الرجوع إلى أهل الاختصاص.

من خلال البحث في علاقة العلم بالحياة وجدثُ آراءٍ مختلفة بين من يرفض ذلك ومن يراه ويؤيده، وسأعرض هذه الآراء وتوجهات أصحابها بصورة موجزة لا تتشعب بالقارئ الكريم: من رفض عزاً أسباب رفضه إلى أن القرآن وحيٌّ لعموم الناس، والعلم يخاطب أهل الاختصاص، لذلك لا يكون الاعتماد في الحقائق القرآنية إلا على المشاهد والأمور الملاحظة بالقرينة والإدراك.

أيضاً من أسباب الرفض أن القرآن يخاطب النفوس، والعلم يخاطب العقول، ففي هذه الحالة لا يمكن إدخال العلم إلى الحياة اليومية، لأن أهداف القرآن نفسية وجدانية طابعها التأمل، بينما لا تركز العلوم على هذه الأمور، وفي رأيٍ ثالثٍ يصف العلم الطبيعي بالمتغير المستمر، والقرآن بالثابت المستقر، وإدخال هذا في هذا يعرضنا إلى التقليل من فداسة القرآن. وبعد البحث في هذه المسألة وجدثُ رداً مقنعاً على من يرفض إدخال العلم الشرعي إلى الحياة العامة، فالقرآن مع كونه ليس كتاباً علمياً بحثاً إلا أنه لم يعارض أو يرفض أي مذهب أو نظرية أو رأي علمي.

ثم رداً على من قال إن القرآن حديثٌ موجهٌ للعموم: لفظ العموم لفظٌ يختلف باختلاف العصور والأزمان، ومن بيئةٍ إلى أخرى، ذلك أن ألفاظ القرآن تتنازع بالمرونة والنبات والسهولة في إدراك الحقائق، فهل عقلية الناس اليوم أرق فهماً من عقلية الصحابة والتابعين، وهل فهمنا للقرآن أدقّ وأوفى من فهم السلف إذا كان القياس بالألفاظ واستقرارها في العقول.

وبين الرفض والرد عليه وحدث رداً للدكتورة بنت الشاطئ تقول فيه أنه لا ترى مانعاً في أن يخوض أهل الاختصاص العلمي في تفسير الآيات التي لها علاقة باختصاصهم، وتقول قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح، وأن يلتفت خبير كيميائي إلى آية القدرة الإلهية في تسوية بنان الإنسان حيث لا يشبه بنان غيره من ملايين البشر، ولكن الذي لا أفهمه هو أن يجزؤ مفسرون عصريون على أن يخوضوا في كل هذا فيخرجوا على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وهندسة وطبيعة وكيمياء وجغرافيا.... وهي تشير بهذا إلى أن الأخذ العلمي للآيات يكون حصراً على أهل الاختصاص، حتى لا يدخل في القرآن ما ليس منه.

وأخيراً فإن الله تعالى قد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ٢٦١، ففي قوله تعالى: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) لفتت إلى أهمية قراءة الخلق قراءة تبدأ من الإنسان ذاته، لنفسه وحياته بكل أطوارها، وبعد ذلك قراءة العوالم والآفاق، وفي ذلك بدءٌ بالمحسوس وإدراكه، وفيه وصول إلى صحيح النظر والفهم السليم والربط بين العلم الديني والنص الثابت الشرعي ٢٦٢.

٢٦١ سورة العلق، الآيات ١-٥.

٢٦٢ راجع ما ورد في العلم والحياة:

- العلواني. طه جابر. ١٤٢٧-٢٠٠٦. الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. ط ١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
- بنت الشاطئ. عائشة محمد علي. ١٤١١-١٩٩٠. التفسير البياني للقرآن الكريم. ط ٧، دار المعارف بالقاهرة.
- زمزمي. يحيى محمد. العدد الرابع، السنة الثانية. تنزيل الآيات على الواقع عند ابن قيم الجوزية. مجلة البحوث والدراسات القرآنية. نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

## المبحث الرابع

### الإشكالات العلمية في القرآن الكريم والرد عليها

تمهيد

إن البحث في علوم القرآن ودراسة مشكلات الآيات علمٌ من أشرف العلوم وأنبهها، وما حاز هذا الشرف إلا استناداً لشرف المصدر جلّ وعلا، ففي الآيات خطابٌ وتكليف، وأمرٌ وتشريف، وفي فهمها والإمام بها كشفٌ للمقاصد والحقائق، وإبرازٌ لشمولية القرآن وإحاطته بجميع جوانب العلم والحياة. وجاء هذا المبحث من خلال ملاحظة الواقع العلمي المعاصر الذي يشكك في صحة بعض الآيات القرآنية العلمية، ويحاول نفي العلم عن الدين، بل ويفصله عنه، فحاولت تبين هذه الإشكالات، انتقاءً لبعض الآيات العلمية، تلك الآيات التي تناقش أمور الدين والدنيا، إذ وقع التشكيك بها حين ظنّوا أنّها لا تتماشى مع الفكر العالمي الحديث، زعموا أنّ الرؤية القرآنية متخبطة، إذ تعارض الآية أختها، وتنقض السورة ما جاء في سورةٍ غيرها، وهكذا دواليك، تعالى الله وكتابه عما يقولون. وسأعرض مستعيناً بالله بعضاً من الآيات العلمية، ثم الآيات التي يقع فيها الإشكال، وأحاول الجمع بين أطراف هذه الإشكالات ومعالجتها بالرجوع إلى أقوال علماء القرآن وأقوال العلم التطبيقي، ليكون الرد على هذا الإشكال رداً علمياً منهجاً، يستنبط أخيراً القصد الشرعي الذي كان هذا العرض بغرض الوصول إليه، ويسدّ الطريق أمام كل من قويت شوكته على القرآن، والله غالبٌ على أمره.

#### تعريف المشكل لغةً واصطلاحاً:

- **مشكل القرآن لغةً:** تناول العلماء الباحثين معنى المشكل في القرآن، وكثيرةً هي التعريفات التي شرح بها العلماء هذا المركب، ولعلّي ابتدئ بالتعريف اللغوي لكلمة مشكل: المشكل لغةً: الخفاء والتداخل، يُقال

أشكل عليه الأمر إذا خفي ودخل في أشكاله وأمثاله، وقيل فيه أيضاً: ما لا يُنال المراد منه إلا بتأمل بعد

الطلب ٢٦٣.

## ● مشكل القرآن اصطلاحاً:

عرّف علماء علوم القرآن المشكل اصطلاحاً بتعاريف كثيرة، وسأعرض بإيجاز بعضاً من هذه

التعاريف، ثم التعريف المختار:

فريق عرّف المشكل بأنه ما أوهم فيه التعارض بين الآيات، وكلام الله منزّه عن الاختلاف، وعرّفه

فريق آخر فقال أنّ المشكل هو: اللفظ الذي خفي المراد منه، فلا يمكن أن يدرك إلا بالبحث فيما

يكشفه من القرائن والأدلة.

كثيرة هي التعريفات، ومن حقّ القارئ على الباحثة ترجيح التعريف المنساق مع فكرة هذه

الورقة، فأرجح -وبالله التوفيق- التعريف القائل بأنّ: مشكل الآيات هي التي يوهم ظاهرها بمعانٍ

مستحيلة، أو معارضة لمعانٍ شرعية ثابتة. وهذا هو التعريف المختار الذي أراه مناسباً للمقام<sup>٢٦٤</sup>.

## أسباب وقوع الإشكالات في القرآن الكريم:

يقع الإشكال في فهم نصوص القرآن ويقع في السنة كذلك، ولكثرة وقوعه صنّف العلماء أسباباً

سأورد أهمّها مع مثالٍ يشرح المقام، ومنها<sup>٢٦٥</sup>:

أ. وقوع المخبر به على أحوال متفاوتة ومختلفة:

٢٦٣ الجرجاني، علي بن محمد. ١٤١٣-١٩٩٢. التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت. ٢١٥/١.

أيضاً: المجددي البركاتي، محمد عميم الإحسان، ١٤٢٤-٢٠٠٤. التعريفات الفقهية، (مرجع سابق). ٢٠٧/١.

٢٦٤ الزركشي، (مرجع سابق) ٢٦٩/٢.

أيضاً: خياط، أسامة عبدالله، ١٤٠٢-١٩٨٢. مختلف الحديث وموقف النقاد والمحدثين منه، مطبعة الصفا، مكة المكرمة، ص ٣٦.

٢٦٥ مراجع هذه الأسباب سأوردها بعد سرد النقاط.

فحيناً يقول الله عز وجل: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)<sup>٢٦٦</sup>، وفي موطنٍ آخر إشارةً إلى خلق الإنسان نفسه: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)<sup>٢٦٧</sup>، وفي سورةٍ أخرى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)<sup>٢٦٨</sup>، جميع هذه الآيات تسوقنا إلى ذات الحقيقة العلمية لأصل الخلقة، ثم تطوّر المراحل بعدها، وهذا ممّا وقفتُ عليه إذ سبب إشكالاً لظهور التعارض في ظاهر النص، وهو ليس كذلك، وسأتطرق إلى عرض هذه الآيات بتفصيلٍ أوسع في ثنايا الورقات بإذن الله.

#### ب. اختلاف فحوى النقاش وموضوعه:

ومن ذلك قوله تعالى: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)<sup>٢٦٩</sup>، وقوله في موطنٍ آخر: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)<sup>٢٧٠</sup>، ففي الآية الأولى بيانٌ أن العدل ممكن ووارد، أمّا الآية الثانية ففي وجود العدل وصعوبة تحقيقه، وهذا ممّا يشكل على القارئ لولا إيضاح أنّ المقصود بالعدل في الآية الأولى هو عدل الماديات والأساسيات وتوفية الحقوق، أمّا العدل في الآية الثانية فالمقصود به الميل القلبي والمحبة، فهذه ليست ممكنة.

#### ج. الاختلاف في جهة الفعل:

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)<sup>٢٧١</sup>، نفى الله عزّ وجل الرمي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأثبتته له، والمراد أنّ الرمي هنا قبضٌ وإرسال، وهذه تكون بإرادة الرامي،

٢٦٦ سورة النحل، الآية ٤

٢٦٧ سورة الرحمن، الآية ١٤

٢٦٨ سورة السجدة، الآية ٧

٢٦٩ سورة النساء، الآية ٣

٢٧٠ سورة النساء، الآية ١٢٩

٢٧١ سورة الأنفال، الآية ١٧

وهناك إرادة تعلق إرادة الرامي يكون بها تبليغ القصد والإصابة، فأضيفت باعتبار الكسب، ونُفِيت باعتبار التأثير.

#### د. الاختلاف في الحقيقة والمجاز:

مثالاً على ذلك قوله تعالى: (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ) <sup>٢٧٢</sup>، إذ يكون الناس سُكَارَىٰ مشدوهين من هول ما يرون، لكنها ليست كسكرة الخمر، فهذا الموقف مهيب، وذاك حرامٌ ومعيب <sup>٢٧٣</sup>.

#### - لماذا الحديث عن مشكل الآيات العلمية تحديداً؟

قال تعالى في كتابه الكريم: (سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) <sup>٢٧٤</sup>، وجاء في الأثر عن ابن مسعودٍ -رضي الله عنه-: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن" <sup>٢٧٥</sup>. تدخل العلوم كلها في أفعال الله وصفاته -سبحانه-، وفي القرآن شرحٌ وإشارات لا تنتهي لها، وجمعٌ عبقريٌّ لهذه المسائل وغيرها، لأجل ذلك وغيره فإنَّ الحديث عن مشكل الآيات (العلمية) تحديداً أمرٌ ينبثق من النقاط التالية <sup>٢٧٦</sup>:

- أولاً: إن العلم به والبحث فيه والتصدي له ليس من مقاصد الوحي الدينية، وما كان كذلك فرمما تنصرف عنه الأقدام فيقلّ طريقه، لاسيما أن ما نقرأ ونكتب في هذا المجال تحديداً موكلٌ إلى

٢٧٢ سورة الحج، الآية ٢.

٢٧٣ راجع: الزركشي، بدرالدين. ١٤١٠-١٩٩٠. (مرجع سابق). ٥٤/٢.

السيوطي، جلال الدين، ١٣٩٤-١٩٧٤ (مرجع سابق)، ٢٩/٢.

٢٧٤ سورة فصلت، الآية ٥٣.

٢٧٥ أبي زهرة، محمد أحمد مصطفى، ١٤١٠-١٩٩٠، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العرب: مصر. ٤٠٧/١.

٢٧٦ هذه النقاط الأربعة من استنتاج الباحثة، وأسأل الله التوفيق إلى السداد.

الاجتهاد، فكما أنّ القوم يجتهدون في خلق المثالب، يجتهد المسلم في إعلاء صوت الحق وسدّ هذه الثغور بالعلم الصحيح، والفكر المستنير.

• ثانياً: في مثل هذا الطرق مواكبةً للواقع العلميّ المعاصر، وما تحمله المسيرة الصّاعدة من علوّ صوت العلم، فيحسن بالإسلام والمسلمين تبوّأ القمّة، ومزامنة الركب في هذا الانفتاح الفكريّ بعقليةٍ متّزنة تنطلق من اتّزان الدستور العظيم الذي ننهج منهجه.

• ثالثاً: إنّ استخدام اللغة العربية في الرد على مثل هذه الإشكالات أمرٌ حديث الولوج، إذ لم تكن المناظرات العلميّة والإشكالات السائدة بين علماء المسلمين وغيرهم إلّا في العصور المتأخرة، وفي استخدام اللغة العربية تجتمع قوة المنطق والدليل وقوة أصحابه، إذ لكل زمان آله.

• رابعاً: أرى أنّ في مثل هذه الأطروحات الحديثة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة فتحٌ لأبواب الدعوة الإسلامية وتوسيعٌ للخطاب الديني، لاسيّما وأن الدين الإسلامي ينتشر اليوم بصورةٍ أوسع عن ذي قبل، كيف لا وهو يحترم العقل ويصون النّص، مواكباً تغيرات الأماكن بكلّ تطوراتها وسيظلّ بإذن الله.

- نموذج من الآيات العلمية المشكّلة، والرد العلمي عليها، ثم الاستنباط المقاصدي:

من بين كثيرٍ من الآيات العلمية التي تحدّثت عن الإشكالات العلمي في مسألة خلق السماوات والأرض، وأطوار خلق الإنسان، والاختلاف في عدد مشارق الشمس ومغاربها، وحدث أن حلّ الإشكال العلمي القائم في سورة الحديد يحقق في خلاصته جملةً من المقاصد الشرعية التي جمعها الله في سورة واحدة، ومن هنا فيّني أتناول:

الإشكال في الوصف اللفظي في قوله تعالى (وأنزلنا الحديد)، إذ أنّ الإنزال يعني الهبوط والخلق، وكيف

ينزل الحديد ولم نره نازلاً كالمطر مثلاً، وما وجه الربط بين إنزال المطر وإنزال الحديد، وبينه وبين إرسال

الرسول، والإشكال الأهم هو كيف ينزل الحديد وهو أصلاً من صلب تكوين الأرض، أليس إخراج الحديد

من بطون المناجم أنسب واقعياً من كلمة إنزاله، فكيف نحلّ هذا الإشكال العلمي القائم؟

قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)<sup>٢٧٧</sup>، وفي الحديث عن إنزال المطر قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)<sup>٢٧٨</sup>، وقال جلّ جلاله: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)<sup>٢٧٩</sup>.

#### المناقشة:

جاء في تفسير هذه الآيات التي تحدثت أولها عن إنزال الحديد في خضمّ الحديث عن الرسالات وأثر الكتب السماوية في الأقوام: أنزلنا الحديد يعني خلقناه لهم من المعادن واستنبط بعض العلماء من قوله: (وأنزلنا الحديد) على أن المعدن إذا كان في قمم الجبال فهو أقوى وأنفع مما إذا كان في أسفله، لأنّ النزول إنّما يكون من أعلى، فالله أعلم هذا يرجع إلى علم الجيولوجيا، لكن أنزلنا بمعنى وضعنا لهم الحديد، وهو معدن معروف من أقوى المعادن، (فيه بأس شديد) أي في الحرب، تُصنع منه السيوف والخنجر وجميع آلات الحرب، وإنما ذكره بعد ذكر الكتب، لأنّ الدين لا يقوم إلا بالدعوة والقتال. فإذا أبل الكفار أن يكون دين الله هو العلي فحينئذ يُقاتلون بالحديد. أمّا في قوله: (منافع للناس) جمع المنافع لأنّها لا تخصّى أجناسها، فضلاً عن أنواعها وأفرادها، فمن يخصّى المنافع التي تحصل بالحديد، ولهذا جاءت بالجمع المعروف بصيغة منتهى الجموع، (ومنافع للناس) دينية ودينيوية، فردية وجماعية<sup>٢٨٠</sup>.

- وجاء في تفسير السمعاني:

٢٧٧ سورة الحديد، الآية ٢٥.

٢٧٨ سورة المؤمنون، الآية ١٨.

٢٧٩ سورة لقمان، الآية ١٠.

٢٨٠ العنيمين، محمد صالح. ١٤٢٥-٢٠٠٤. تفسير الحجرات والحديد. دار الثريا للنشر والتوزيع بالرياض، ١/٤٢٤.

وأُنزلنا الحديد فيه بأس شديد) قوله: (أُنزلنا الحديد) فيه قولان أحدهما أنّ معناه: وخلقنا الحديد وأحدثناه، والقول الثاني: أنّ المراد به هو الإنزال من السماء حقيقة، وأنّ الله تعالى لما أنزل آدم إلى الأرض أنزل معه العلاة والكلبتين والميقعة وهي المطرقة وقيل: أنزل معه الحجر الأسود وعصا موسى من آس الجنة وما ذكرنا من الحديد. وقوله: (فيه بأس شديد) أي: هو سلاح وجنة، فالسلاح يُقاتل به، والجنة يُتقى بها، وقوله (منافع للناس) هي ما يتخذ من الآلات من الحديد مثل الفأس والقدوم والمنشار والمسلة والإبرة ونحوها بها. وقوله: (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) ذكر هاهنا هذا؛ لأنّ نصره الله تعالى ونصرة رسله بالقتال، والقتال بالآلات الحديد، وإتمّما قال: (بالغيب) لأنّ كل ما يفعله العباد من الطاعات إنّما يفعلونه بالغيب<sup>٢٨١</sup>.

#### - وجاء في تفسير الآيتين السابقتين اللتين تحدثنا عن إنزال المطر:

الله أنزل المطر نماءً للأرض ورواءً، والمطر مقدّر معدود موزون الأماكن والكمّ والكيف، فما يلبث المطر بالنزول إلّا وقد سكن منه جزءٌ في باطن الأرض، وأجزاء ترتوي منها الدوابّ فتفيض وتكثر بعد أن خلقها الله زوجين اثنين. ويذكر العلماء هنا علاقة نزول المطر بإنزال الحديد: وهي أن المطر يهبط محملاً بأعدادٍ كثيرة ومتنوّعة من المركبات والعناصر الفيزيائية وغيرها، التي تساهم في مجموعها تكوين مادة الحديد، حتى إذا ما نزل المطر، نزل معه الحديد بصورة سائلة، ثم يسكن الماء باطن الأرض، ليتكوّن الحديد على مدى ملايين السنين، هذا بالإضافة إلى الكثير من الاكتشافات اللّغوية واللفظية التي توصل إليها العلماء بشأن قوله تعالى: (أُنزلنا) حديثاً عن الحديد والمطر<sup>٢٨٢</sup>.

أمّا عن علاقة إنزال الحديد بإرسال الرسل، ذلك أنّ الدعوة إلى الله تحتاج إلى قوّة البيان، وقوّة العناد، لأنّ رسول الله حاملٌ للرسالة، وموكلٌ بنشرها، ولمن خالف رسالة الله الحرب، حتى يأتوا مدعنين،

٢٨١ السمعاني. تفسير القرآن. ٣٧٨/٥.

٢٨٢ المرجعين السابقين بتصرّف. راجع أيضاً: موقع إعجاز القرآن والسنة. [www.quraan.com](http://www.quraan.com)

والحرب تكون بقوة السلاح والحديد، ففيه البأس الشديد، وبه يردّ الحق وينقاد الناس إليه، إن لم يكن الانقياد خوفاً من الله، فهو خوفٌ علة الناس، وكلاهما طاعة.

### توضيح وجه الإشكال علمياً:

تشير الاكتشافات العلمية إلى أنّ الحديد يشكّل نسبةً كبيرةً في باطن الأرض، وهذه النسبة تفوق الـ ٣٥٪ وفق هذه الاكتشافات، لكنه حتى أواخر الخمسينات لم يكن أحدٌ يؤمن بهذا ولا يتصوّر، إضافةً إلى أنّ تحيّل أن نسبةً كهذه نزلت من السماء كما الأمطار شيءٌ مستحيل، ومن هذا الباب دخل الإشكال مدخله، فأشككت الآيات على أقوام، وشكّك بصحة الآيات أقوامٌ آخرون. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن لو هله سماع قوله تعالى: (وأنزّلنا الحديد) هو كيف نزل الحديد إلينا، وكيف اخترق الحديد الغلاف الجويّ والصخريّ، ثم كيف تشكّل في لبّ الأرض، وهل كان نزولاً حقيقياً أم أنّ الكلمة هنا وصفٌ مجازيٌّ؟

بعد البحث والتقصّي في هذا الإشكال العلميّ المهم توصلت -بفضل الله- إلى خلاصةٍ علميّة قام بها علماء فلكيون وغيرهم، تفيد هذه الدراسات أنّ الحديد مركّبٌ من غازات الأيدروجين والهيليوم وغازات أخرى، هذه الغازات شكّلت التجمّع النووي، وتتسم بالحرارة العالية، مع خفة عناصرها وعلوّ وزنها الدّري، إذ يحتاج تخليق هذه العناصر إلى درجة حرارةٍ عالية جداً، لا تكون إلا في مرتحل من حياة بعض الكواكب والنجوم، إذ تُعرف باسم العماليق العظام، وفي مراحل التوهج الشديدة وحين تزيد الحرارة على هذه العناصر ينفجر النجم، وتتناثر أشلاؤه في صفحة السماء، لتدخل في نطاقات الجاذبية الأرضية، وتصل إليها ملايين من الأطنان عبر الأمطار، والنيازك والشهب، حيث تستقرّ الأمطار والحمم في باطن الأرض ليتكوّن الحديد، إذ تستغرق هذه العملية ملايين السنين تفاعلاً مع باقي العناصر.

وفي مدار الحديث عن الأبحاث العلميّة في هذا الصدد فقد اكتشف العلماء جرمًا سماويًا ضخماً، يبعد عن الكرة الأرضية ٦٤ تريليون كيلومتراً، ميزة هذا الجرم أن غلافه الجويّ مليءٌ بعنصر الحديد السائل، وهذا الحديد يتكتّف مثل بخار الماء، ثم ينزل على هيئة أمطار، أمطارٌ من حديد وماء، وحين تستقرّ في باطن الأرض تبرد فتتصلّب على هيئة الحديد الخام الذي نعرفه، ولكن كما سبق فإنّ هذه العملية تستغرق مئتين السنين.

بعد هذا البيان أصبح من السهل المتصوّر إثبات قوله تعالى: (أنزلنا)، إذ نزل الحديد إلينا من السماء مثل الأمطار، هذا الأمر الذي كان مرفوضاً قبل سنوات، حتى هدى الله البشريّة إلى هذا الاكتشاف قطعاً للإشكال، وردّاً للمشككين<sup>٢٨٣</sup>.

**كيف يمكننا استنباط المقاصد الشرعية من حلّ الإشكال العلميّ في هذه السورة:**

كثيرةٌ هي الآيات العلمية التي فتح باب الإشكال فيها آفاقاً واسعةً من البحث والتحريّ والفهم السليم، ولأنّ الهدف الأجلّ من هذا البحث بجملته بيان أنه لا تعارض بين آيات القرآن العظيم، وهي في خلاصتها كيانٌ واحد من عند الحكيم العليم الذي ما أنزل كتابه إلا لحكمٍ بالغة، عرفناها أم لم نعرفها بعد.

وبعد تتبّع لكثيرٍ من الآيات العلمية المشكّلة التي تحويّ في نهاية قراءتها مقاصد سامية وجدتُ أن سورة الحديد جملةً حققت في ثمايها المقاصد الشرعية الخمسة انطلاقاً من فضّ الإشكال العلميّ آنف العرض، ففي بدايتها تقريرٌ بجلالة الله سبحانه تنزيهاً له عن كل نقیصة، ثم تأكيدٌ على عظّمته وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما بينهما من دوابّ وجمادات وأجرام، وهو الذي بعد هذا الخلق العظيم استخلف الإنسان في كل شيء، وأقننه

٢٨٣ في هذه الأبحاث العلمية راجع المواقع العلميّة البحثية التالية: موقع الباحث عبدالدائم الكحيل: [www.kaheel7.com](http://www.kaheel7.com) وراجع

أيضاً: [www.quraan.com](http://www.quraan.com) موقع إعجاز القرآن والسنة، راجع أيضاً موقع وكالة ناسا: [www.nasa.gov](http://www.nasa.gov)

الأرض يجول في أطرافها ويعمرها، وخلق الخيرات وجعل المال دولةً وقوةً وسلاحاً، وأرسل الرسل مؤيدين بكل ما يعين على إصلاح الأرض، فابتداءً حفظ الله الدين، إذ خلق له الوعاء المكين، ثم أرسل الرسل أماناً وسلاماً وإحقاقاً للحق وقمعاً للباطل، لأنه إن لم يحفظ الدين دبّ الأمان فلا طابت النفوس، ولا أبدعت العقول، ولا قامت للحضارة قدم، وبالتالي تبعثرت مصالح الدين والدنيا، وانتفت فكرة الاستخلاف في الأرض، وحاشا الله سبحانه أن يمنّ على عباده نعمةً ثم يسلبهم بيئتها!

حين جاءت آية الحديد كانت في معرض الحديث عن الرسل والرسالات، والبأس الشديد في طرح الحق والقسط، فهو المنتفع به في الحروب مجنّةً وتروساً، وهو السلعة التجارية الرائجة التي لا تاريخ نهاية له، وهو الأساس لقيام المباني والأسس العميقة، وهو الآية العلمية المذهلة التي ما زالت تحيّر العقول رغم تقدم العلم الحديث، فسبحان الله كيف جعل في ما خلق قيام مصالح عباده عدةً وعتاداً، حيث جمع الله قوة الآيات القرآنية، والدلائل الملموسة العلمية مادّيها ومعنويّها سبباً وجيهاً من أسباب العلبة والنصر وتحقيق خلافة الأرض على هدىً ورشاد.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA  
جامعة العلوم الإسلامية  
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

## الخاتمة

الحمد لله الذي لولا فضله ما تمّ عملٌ ولا بوركت جهود، أشكره سبحانه جميل الشكر وأثني عليه بالغ الثناء أن رزقني وشرفني بكتابة هذه الورقات، وخدمة شريعتنا الغراء، فالصواب هداية منه وتوفيق، وخلله من نفسي والشيطان، والحمد لله على جميل ما هدى فكان. فقد كان القرآن الكريم ولا يزال يلفت العقل إلى الكثير من الآيات والقضايا التي تشدُّ من ذهن القارئ، باحثاً عن المقاصد السامية وراء النصِّ القويم، إيماناً عميقاً أنّ القرآن لا ينطق عن هوى، وما كان له أن يكون، وهو المنزل من عند العزيز الحكيم. وناقش القرآن الكريم كلّ جوانب الحياة، مبيّناً وجه الصحة والمفسدة في كلّ جانب، سواءً ما يتعلّق بمصلحة الفرد والجماعة، والحاضر والمستقبل، وهو ذاته ما أسماه العلماء علم المقاصد الشرعية، وجمعها العلماء في خمسة هي: حفظ الدين، والعقل، والمال، والنفس، والنسل، إذ يتتبع هذا العلم المصالح ويراعيها، ويدفع المضارّ.

وبعد رحلة بين معالم التنزيل، والآيات الحقة من صنع العظيم الجليل، وما وصل إليه العقل بعد الفهم والتأويل، إفادة من عمق المنقول في إبراز المعقول، ومروراً بجهود السلف والمفسرين وآراء علماء الأمة اللامعين الذين كانوا ولا يزالون يخدمون هذا الدين، ويسعون بشتى الطرق لدحض كل الاتهامات والنقائص التي حيكت ضد الشريعة الغراء.

حاولتُ في هذا البحث -الذي أسأل الله بركته- أن أجمع في دراسة تطبيقية الآيات العلمية الواردة في سورة البقرة، ثم بقية السور، وأنزل عليها المقاصد الشرعية الخمسة، من قراءة التقدم العلمي المعاصر، وكيف أنّ الحياة العلمية اليوم ساهمت كثيراً في توسيع آفاق الطرح المقاصدي، وساعدت كذلك في سهولة إقناع غير المسلمين بعظمة هذا الدين وملازمته جميع جوانب العلم والحياة دون أن يعارض أمرٌ أمراً آخر.

حرصتُ خلال طرح الآيات العلمية ألا يستأثرَ الحديث عن العلوم جلّ ما أقول، تأكيداً على إن الاتكاء على العقل دون النقل له ما له من أخطارٍ وأضرارٍ وجبَ التنبيه إليها، لكننا بحاجةٍ إلى أن نوازن بين المطلبين لتحقيق سيادة الدين على الدنيا، عرّجتُ كذلك على مكانة السياقات القرآنية، وكيف أن فهم فحواها فهمٌ لمغزاها، وأن اختلاف السياق في آيةٍ دون غيرها لا يعني وقوع الإشكال بينها، بل يحقّها ما يغيّر ميناها لا معناها، مع تبيين الإشكال الذي قد يقع في الآيات العلمية، تبييناً يجمع أقوال الأئمة المفسرين، وتطبيقات العلماء المكتشفين، وأخيراً الخلوص إلى استنباط المقاصد الشرعية من هذه الآيات، وكيف أنّها في جملتها ما جاءت إلا لتحقيق مصالح العباد وما يقيم حياتهم في العاجل والآجل. وأخيراً فإنّ التصدي لمثل هذه الدراسات العميقة المتجددة أمرٌ عظيم يصعب حصره في عجالة، ولكن كما يُقال: "ما لا يُدرك كله لا يترك جله"، يكفيني شرفاً رغم قلة بضاعتي وخطئي بين الصواب، أن أكون قد فتحتُ باباً، أو تَبَّهتُ ذهنًا، أو سعيثُ في الدفاع عن هذه الشريعة السمحة، بدأتُ حروفي الأولى بقلم الشغوف، وأخمنتها وقد حدّثني الكلمات والحروف ولازال في جعبتي الكثير ممّا يُقال بإذن الله في محطاتٍ علميةٍ مستقبليةٍ واعدة، والله الفضل من قبل وبعد، ثم لوالديّ الكرام وإخوتي، ولمشرفيّ وأساتذتي الفضلاء الذين ما فتئوا يقدمون النصح والتبيان، وإلى الله قصد السبيل، وعليه أولاً وأخيراً التكلان.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA  
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية  
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

## النتائج والتوصيات

بعد أن أتيت إلى نهاية عرض هذا البحث -الذي أسأل الله التوفيق فيه- فإنه من الواجب ذكر أهم النتائج والتوصيات التي خلصت إليها، وذلك بالعرض الموجز لأطراف الدراسة، والإحاطة بما شملته إجمالاً، وعلى الله التكلان.

### • النتائج .

- ١- إن علم المقاصد والأخذ به في دراسة الواقع لم يكن حديث النشأة، بل اهتم به عددٌ من العلماء على اختلاف العصور، وفي ذلك تأكيدٌ على أن الشرع لا يعارض العلم والحياة، ودافعٌ على مواصلة البحث والدراسة لإثراء هذا العلم بما يتطلبه زماننا اليوم.
- ٢- اتفق العلماء على أن المقاصد الضرورية خمسة، أولها الدين، ولم يتفقوا في ترتيبها، لكن حفظ النسل يُقدّم على حفظ المال.
- ٣- الحاجة إلى دراسة الجوانب العلمية العملية للمقاصد، وذلك خروجاً عن الدراسات النظرية، بتطبيقها فعلاً على أرض الواقع، فقد تبيّن قلة الطرح فيها أو وقلة ربطها بمستجدات الواقع المعاصر.
- ٤- إنّ في توجيه الأمة الإسلامية التي تعايش التقدم العلمي الهائل في كيفية تفاعلها مع هذه المستجدات حسب النصوص الشرعية علاجٌ لكثير من المشكلات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والأخلاقية التي تعصف بالمجتمع المسلم.
- ٥- ينبغي التنبيه إلى عدم الإفراط في التفسير العلمي، وجعل النصوص القرآنية تتبع الأفكار العلمية كأنها هي الأساس، ولكن تأتي النصوص القرآنية ركنية راسخة، ثم بيان مطابقتها

الواقع العلمي المعاصر لها، تفكراً وتأصيلاً، ثم استلهاماً للمقصد الشرعي المتحقق جزاء فهم الآيات وتطبيقها.

٦- التمسك بالدلالات النصية القرآنية ركنٌ أساسٌ لا يقبل الإزاحة، وما ذاك إلا لما نراه من محاولة هزّ مكانتها والتقليل من شأنها في فهم ودراسة الواقع المعاصر، فهي ثابتة، قطعية، شاملة مقدّسة عن أيّ نقص أو خلل.

٧- في إدراج التطبيقات والابتكارات العلمية الحديثة، وربطها بالمقاصد الشرعية الخمسة، وغايتها السامية في جلب المصالح ودرء المفسدات، ثم الاستدلال عليها من النصوص القرآنية المتعلقة بها، وما قاله المفسّرون الأجلاء في هذا الشأن بيانٌ صريحٌ لتكامل حلقة الدين والعلم، فالمجتمع المسلم هو الذي ينمو وتنمو معه معارفه وتزدهر.

٨- إن في الاهتمام بالمقاصد الشرعية القرآنية إعادةً لمجد الفكر الإسلامي الرشيد، ورفع مشعل التقدم العلمي الذي انطلقت أصوله أساساً من الكتاب والسنة.

٩- حاجة مجتمعنا المسلم اليوم إلى توسيع الأخذ بالفكر المقاصديّ المبني على الفهم السليم لنصوص الكتاب العظيم، حاجةٌ تهدّ بنا من الوهم والاضطراب والشبهات التي تتخلّل الفكر حتى تصبح كالمباحات، فالنصّ القرآني يعرّف الحدود والمنهج المعتدل الحقّ الذي يضمن المصلحة للجميع.

١٠- تركيز الشريعة الغراء على الحفاظ على المقاصد الشرعية الخمسة كاملةً دون فصلٍ بينها، لأنه إذا فقد أحدها أو اضطرب لن تُجدي أضرارها نفعاً فهي كلّ لا يقبل التجزئة.

١١- وازن الشرع القويم بين مكانة النقل والعقل، دون أن يرفع أحدهما أو يقصيه عن الآخر، فالعقل الصحيح ثمرة الوحي الصريح، وواحدةٌ من أبرز مقاصد الشريعة حفظ العقل وبنائه

البناء الواعي البعيد عن الجمود والتخلف، أو الإغراق في كلّ جديد دون إدراك غاياته ومراميه.

١٢- العلم باللغة العربية شرطٌ فيمن يتصدّى لتفسير كتاب الله، وذلك لمعرفة معاني القرآن، ثمّ تفسيره، حيث أنّ الجهل باللسان العربي يُوقِع الأغلط وسوء الفهم، ويُحِيل مراد النصّ ودلالاته إلى غير مقاصده.

١٣- إنّ في الحديث عن الآيات القرآنية ذات الدلالات العلمية، ثمّ ربط هذه الآيات بالتطبيق العلمي المعاصر صورةً راقيةً توضح مدى ارتباط الإنسان بالكون ودورانه معه، فمقاصد الشرع الخمسة متحققةً بتتبع هذه الوسائل وتطويرها بما يناسب النصّ القويم.

١٤- يحسن بطالب العلم أن يكون ذا ملكةٍ فقهيةٍ يتمكّن بها من قراءة الواقع العلمي المعاصر برؤيةٍ منهجيةٍ شرعيةٍ، يدرك خلالها الحاجة الحاضرة، والمستجدات التي تعاصر الأمة الإسلامية، حتى يوجد لكلّ حادثةٍ التكييف الفقهي النصّي الصحيح، فلا تُترك أمور المسلمين دون إيضاح.

١٥- القارئ المتدبر لكتاب الله يدرك يقيناً أنّ جميع آياته تحدم ذات الهدف وإن اختلفت السياقات، فإنه لا إشكال بينها، وهذا ينفي -بكل حال- وجود مشكلات مقاصدية تعارض الدراسات العلمية، مع التنبيه أنه لا يوجد فرق بين استخدام كلمة مشكل أو إشكال.

١٦- كان الحديث عن الآيات العلمية واستنباط المقاصد الخمسة منها -تحييداً- دون غيرها لأسبابٍ أهمها: أنّ البحث فيها والعلم بها ليس من مقاصد الوحي الدينية، فربما تنصرف

عنه الأفلام مع مساس بيانه والحاجة إليه لمواكبة اليوم، كما أنّ في مثل هذه المباحث التي

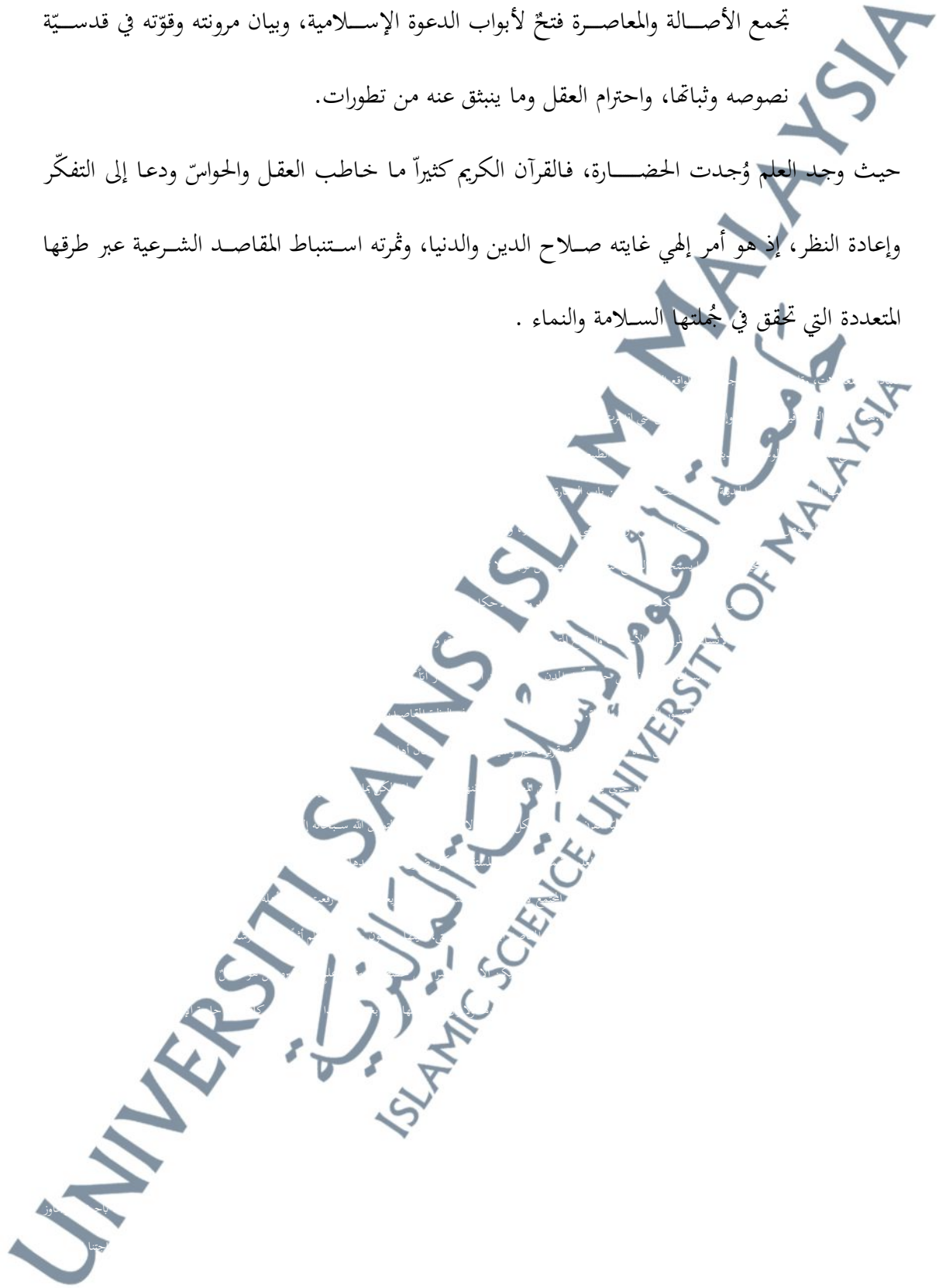
تجمع الأصالة والمعاصرة فتحّ لأبواب الدعوة الإسلامية، وبيان مرونته وقوّته في قدسيّة

نصوصه وثباتها، واحترام العقل وما ينبثق عنه من تطورات.

حيث وجد العلم وُجدت الحضارة، فالقرآن الكريم كثيراً ما خاطب العقل والحواسّ ودعا إلى التفكّر

وإعادة النظر، إذ هو أمر إلهي غايته صلاح الدين والدنيا، وثمرته استنباط المقاصد الشرعية عبر طرقها

المتعددة التي تحقق في مجملتها السلامة والنماء .



• التوصيات:

- ١- مواصلة البحث في المقاصد الشرعية في باقي سور القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، فهما بابان واسعاً الولوج، عظيماً الفرائد.
- ٢- الحرص على تنزيل وتفصيل العمل بالمقاصد، وتحويله من القراءات النظرية إلى واقع معاصرٍ منضبطٍ بنصوص الشريعة وأقوال العلماء المفسرين والمجتهدين.
- ٣- ضرورة إضافة مادةٍ أكاديمية "مقاصدية" تؤسس الفكر المترن المتصف بالحكمة الإلهية المستنبطة من النصوص الشرعية.
- ٤- إنشاء منتديات ومراكز شرعية متخصصة تُعنى بمتابعة الدراسات المقاصدية وإشكالاتها ومستجداتها، والفُتيا فيها، لاسيما ما يتعلق بالجانب العلمي المعاصر منها.
- ٥- تأسيس مجلة دورية تهتمّ بشهر ما يصدر من البحوث والورقات والإسهامات والمقالات التي تناقش المقاصد الشرعية.
- ٦- تغذية مكتبة الجامعة والمكاتب المتعلقة بها بالإصدارات الحديثة التي تتناول الطرح المقاصدي بقراءةٍ علميةٍ وفق نهج النصوص الشرعية.
- ٧- قيام الجهات المتخصصة بوضع ضوابط الاجتهاد المقاصدي، وضوابط الباحث فيه حتى لا تُحمّل النصوص الشرعية ما لا تحمل.
- ٨- الدعوة إلى فهم الروابط العقدية والحضارية بين المسلمين وغيرهم ما داموا يعيشون في المجتمع الواحد، وذلك بتحقيق المقاصد الشرعية التي تكفل حق الجميع وتحقق لهم مصالح دنياهم وآخرتهم.

وبهذه النتائج والتوصيات

أصل بإذن الله وتوفيقه إلى نهاية كتابة هذه الرسالة، والله أسأله أن يجعل هذا الجهد مُباركاً،  
خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله قبولاً حسناً وينفع به كاتبه وقارئه وناقله، وكل مسلمٍ

ومسلمة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات